بشير محمد سعيد

يقدم :

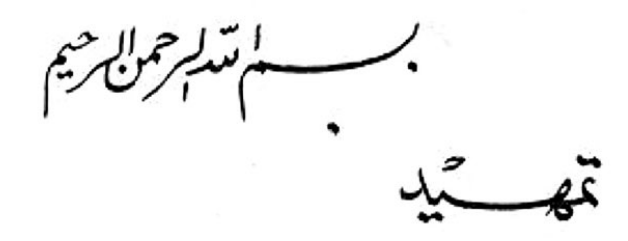
الأستاذ/

احمد خير

المحامي

عطاؤه وبذله في خدمة السودان

من وثائق لجنة الاحتفال باليوبيل الذهبي لمؤتمر الخريجين
١٩٣٨ - ١٩٨٨م



تمهيد

باسم لجنه الاحتفال بالعيد الذهبى لمؤتمر الخريجين العام (٣٨ـ١٩٨٨) يسعدنا أن نقدم هذه الصوره القلميه التى اختطها الاستاذ بشير محمد سعيد ، مدير عام شركه الايام للصحافه المحدوده لحياه الاستاذ الكبير أحمد خير صاحب فكرة المؤتمر ومن كبار مؤسسيه .. وهو أيضا صاحب فكرة يوم التعليم ، والمهرجان الأدبى ، ويوم السودان الرياضى ، ونود أن ننتهز هذه الفرصه فنرجو للاستاذ أحمد خير موفور الصحه والعافيه وأن نسال الله تعالى أن يوفقنا جميعا لترسم خطاه ، وأن يجزيه عن السودان وأهله خير الجزاء .

يهمنا أيضا أن نتوجه بالشكر الجزيل للأستاذ بشير محمد سعيد على إعداد هذا الكتاب الذى نأمل أن يحقق الغرض المنشود منه ، وهو أولا الاعتراف بجميل الاستاذ أحمد خير وعطائه وبذله فى سبيل بلادنا وهو ثانياً غرس الرغبه فى مثل هذا العطاء فى نفوس ابنائنا واجيالنا الجديدة .

سكرتاريه لجنه الاحتفال
بالعيد الذهبى للمؤتمر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد

خاتم المرسلين

مقدمة

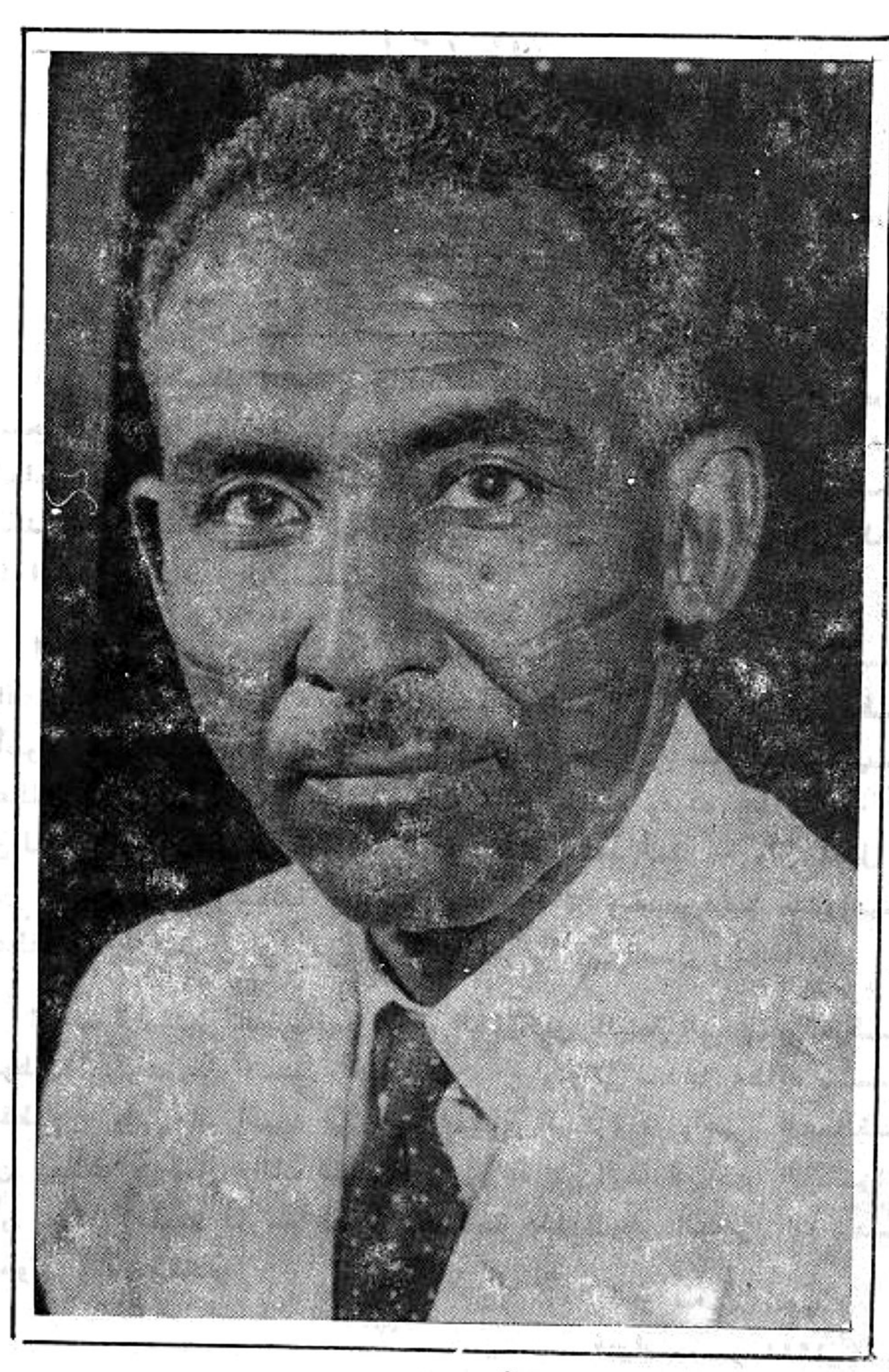
تربطني بالاستاذ أحمد خير صداقة واحترام وود .. وقد اسعدني ان استجيب لرجاء القائمين بأمر الاحتفال بالعيد الذهبي لمؤتمر الخريجين العام باعداد هذه الصورة القلمية له .. وهي ليست ترجمة لسيرتـــه ، ولكنها لقطات سريعة من سجل حياته الحافل . حاولت فيها أن التزم ، ما استطعت جانب الموضوعية ..

اننا في السودان نظلم قادتنا وزعماءنا بعدم احتفالنا بهـــم ، والاعتراف لهم بالفضل .. ونظلم أنفسنا وابناءنا باحجامنا عن ربطهـم بأصولهم وجذورهم ، وتقديم القدوة الصالحة لهم من منجزات قادتهـم ، وعطائهم الثر للوطن ، وجهادهم في سبيل حريته وعزته وتقدمه .. وقد آن لنا أن نقلع عن هذه العادة الضارة التي تقعد بنا .. وأن نقبل على سير البارزين من زعمائنا وقادتنا فنسجلها ، ونعدد فيها منجزاتهـم وعطاءهم .. فنغرس في نفوس ابنائنا الرغبة في البذل والعطاء ،

ان فكرة مؤتمر الخريجين العام الذي كان طليعة النضال والحركـــة الوطنية صدرت عن الاستاذ أحمد خير .. وتوالى بعدها عطاؤه بـــلا انقطاع . واني اذ احييه في هذه الذكرى العطرة ، واحيي العمالقـــة من زملائه ، اسأل الله تعالى أن يجزيه عن السودان خير الجـــزاء ، وأن يوفقنا جميعاً لترسم خطاه في خدمة هذا الوطن العزيز ، انه نعـــم المولى ونعم النصير .

بشير محمد سعيد

فبرايـــــر ١٩٨٨



الأستاذ/

أحمد خير "المحامي"

الفصل الأول

المولد والمنشأة

في قرية فداسي العامراب ، الرابضة على شاطئ النيل الازرق جنوب واد مدني، وفي يوم مشرق الوجه ، عليل الهواء ، من عام ١٩٠٤ رزق محمد أحمد خير بابنه الأكبر ، فأسماه أحمد تيمناً باسم ابيه ، على عادة أهل السودان في ذلك الزمان . ولم تكن فداسي - مسقط رأس الوليد - موطناً له ولا لأسرته .. ولكنها ظروف العمل ألقت بهم ، عابري سبيل أول الامر ، ثم مقيمين .. فيها ، اذ كان جده لأبيه جندياً خلال الحكم التركي المصري في كتيبة يقودها صالح باشا المك ، معظم أفرادها ، وجد الوليد منهم ، ينتمون الى قبيلة الشايقية التي اشتهرت بالشجاعة والفروسية وشدة البأس ، وبالولاء الديني للسادة الميرغنية ، ومسايرتهم في رفض دعوى المهدية ومبادئها وتعاليمها . وكان الحكم التركي المصري قد بسط سلطانه على السودان بحد السيف في عام ١٨٢١ بعد أن صرع دوبلاته في معارك مشهودة استبسلوا فيها أروع ما يكون الاستبسال . وظل يخضع البلاد لارادته ، وسوء ادارته ، حتى هبت في وجهه الثورة المهدية في عام ١٨٨١ بقيادة الامام محمد أحمد المهدي فأقضت مضجعه أول الامر ، ثم اجهزت عليه ، وحررت السودان من قبضته في عام ١٨٨٥ .

كان صالح المك وجنده قد حثوا الخطى مسرعين من منطقة الروصيرص في جنوب الفونج الى الخرطوم ، ليسهموا في فك الحصار الذي أحكم به الامام المهدي قبضته على العاصمة ، وكتم انفاسها ، وأنهك اهلها بالجوع والهلع . وكان الباشا في زحفه ذاك يقاتل من يعترض سبيله من امراء المهدية وجنودها . وكان الامام المهدي قد بعث بصهره محمد البصير الى منطقة الجزيرة ليحصل له فيها على البيعة من الاهليين فطاب له البقاء بين الحلاوين حتى بلغه نبأ معركة شيكان التي حصد فيها الامام المهدي ورجاله جيش الأعداء بقيادة هكس باشا حصداً ،

وجاء في أرض المعركة عبد الله الشيخ حمد النيل ، شيخ العركيين في أبي حراز ، وعبد الله ود البحر ، شيخ الكواهلة في وسط الجزيرة،كل منهما أمير من قبل المهدى على قومه ٠٠ وكان الامام المهدى قد عين أيضاً عبد الله (باشا) أبو سن اميراً في رفاعة ، والطيب حمدون ، ناظر الجعليين ، أميراً في المسلمية فلبيا الدعوة والنداء ، وانضما الى محمد البصير أو تظاهرا بالانضمام ٠

ولما ترامت هذه الانباء الى صالح المك زحف على محمد البصير في قوة قوامها ألف واربعمائه مقاتل من الشايقية ، كلهم مسلحون بالاسلحة النارية ، وقرب مدنى تصادمت القوتان ٠٠ فقتل من رجال المهدية خمسمائة رجل ، وكان النصر للباشا ٠ وأسرع الخطى الى فداسى حيث حفر خندقاً تحصن فيه ٠ وما هو الا وقت قصير حتى جمع محمد البصير شتات جيشه ، وتهيأ لمعركة أخرى مع الباشا في خندقه ٠ ومرة اخرى خسر المعركة ٠ وفقد من رجاله ألف مقاتل مقابل أربعة عشر رجلاً من اعدائه ٠ ومع هذا فقد اختلف الأمر وتغيرت الصورة عندما علم الباشا بنبأ سقوط الخرطوم ، وبمقتل غردون باشا ٠٠ فبقى من جنوده ورجاله في فداسى من بقى ، وارتحل منها من ارتحل ٠ وكان الجندى أحمد الخير - جد الوليد - فيمن بقوا فيها ٠

وفى تلك القرية الوادعة طاب للأسرة المقام بفضل كرم الشيخ حمد النيل واريحيته ، وما كانوا يحصلون عليه من رزق يضربون في الأرض بحثاً عنه ٠ وكان والد الفتى - محمد أحمد خير - يعمل مع التجار في تهريب بضائعهم من شمال سنار الى قلب الجزيرة في غفلة من رجال المهدية وعيونها ٠٠ اذ كانت قد فرضت على ترحيل البضائع قيوداً صارمة ٠٠ واتاح له هذا العمل أن يتعرف على القرى والبنادر ، وأن يلتقى بأهلها ويعقد صداقات معهم ٠ وظل هذا شأنه حتى تم فتح السودان من جديد ، وأعلن فيه قيام الحكم الثنائى تحت أمرة اللورد كتشنر باشا ٠ قائد حملة الفتح ٠٠

وترامى اليه نبأ عزم الحكومة على انشاء مركز للشرطة في واد مدنى فرغب في الالتحاق بخدمته ، وسعى فتم قبوله .. وانتقل الى واد مدنى تاركاً أسرته ، أول الأمر ، وراء ظهره في فداسي ، حتى اذا ما نقل الى سنجة ليعمل فيها ، ادركت به .. وكانت سنجة حينذاك بلداً قفراً صغيراً ، يعيش فيه سلالة الفونج من أهل المنطقة، وأفراد بعض القبائل العربية ، وبعض القبائل التى كانت موالية للمهدية ، ممن قررت الحكومة الجديده تبديد شملهم وتشتيتهم .

وفي سنجة سكن الرجل وأسرته في بيت من هذه البيوت التى تعدها الحكومة لرجال شرطتها ، مشيد من الحطب والقش مما يسمونها القطاطى . وكانت معظم المساكن هناك من هذا الطراز .. وكان الرجل وأسرته سعداء في موطنهم الجديد ، يحيط بهم ذووهم من رجال الشايقية الذين نزحوا الى هناك سعياً وراء الرزق ، ويستمتعون بالامتيازات القليلة التى كانت تجود بها الحكومة على الشرطة .. دارهم مفتوحة لاستقبال الضيوف ، وأياديهم ممدودة بالعون من القليل الذى يملكون ، للفقراء والمساكين .

وكان الرجل قد تتلمذ أول الامر على السادة الادارسة من مشايخ الطرق الصوفية ، ولكنه نزع عن نفسه ذالك الولاء فيما بعد تحت تأثير الشريف يوسف الهندى ، الذى كان يحتل مركز الزعامة الدينية الثانى في البلاد .. وكان الرجلان قد التقيا في قرية النوارة من أعمال القضارف فائتلف قلباهما ، ونمت بينهما أواصر الود والصداقة والاحترام . وما هو الاَّ وقت قصير بعد هذا اللقاء حتى انخرط صاحبنا في صفوف الطريقة الهندية .. وازدادت عرى المودة بين الرجلين قوة مع الايام ، فاقترن الشريف بابنة صاحبه وتلميذه ، فانجب منها الحسين وزين العابدين في من انجب . وكان الشرطى محمد خير يؤدى واجبه في كفاءة وامانة وصدق ، ويصيب فيه الترقى حتى أصبح ضابطاً مرموق المقام .

وأمضى الفتى أحمد سنينه الأولى فى سنجة ينعم بحنان أسرتـــه وعطفها ، حتى اذا ما بلغ سن السابعة ألحقه أبوه بالكتـــاب ، أو المدرسة الأولية فيما اسموها بعد ذلك ، وكان له من الأخوة علـــى الذى يصغره بعام واحد ، ويوسف ، واختان تكبرهم جميعاً • وكـان على التلاميذ أن يمضوا فى الكتاب خمس سنوات ، اثنتين منها فـى المرحلة التحضيرية وما بقى فى الدراسة الأولية • ولم يكن قد اتيـح للفتى قبل ذلك أن يدخل الخلوة لتعلم مبادىء القراءة والكتابـة ، وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ، على عادة الناشئة فى ذلك الوقت •

وأكمل دراسته الأولية ، وكان ذكياً حذقاً •• فاختير مع قلة مـن زملائه التلاميذ للذهاب الى الخرطوم ليجلسوا فيها لامتحان اللجنـة الذى يفتح لمن يجتازه بنجاح أبواب الدراسة الابتدائية ، أو مـــا أسموها الوسطى فيما بعد • واجتاز الامتحان بنجاح •• وفى المدرسة الابتدائية التقى بزملاء جدد وفدوا من مناطق مختلفة - من النيلـين الأزرق والأبيض وغيرها - على حسنى وزين العابدين الطيب ومحمـد أحمد ابورنات ونصر نمر ، وأحمد رحمة الله حامد ، والزبير حمد الملك ، ومحمد أحمد عبد القادر •• عشرين أو خمسة وعشرين فـى فصل دراسى واحد • واتيح له أن يسكن فى الداخلية ، ويخضـــع لنظامها الصارم الدقيق •• يستيقظ فى الصباح الباكر فيـــؤدى الصلاة ، ثم يقبل على الألعاب الرياضية - الجمباز - ويمضى بعـد ذلك الى فصل الدراسة بعد تناول افطار ادامه عدس أو فول ، وخبزة كسرة الذرة تعدها للتلاميذ العواسات •

ولم تكن سلطات المدرسة لتأذن لتلاميذها بمغادرة الداخلية فى عطلة آخر الاسبوع الا بموافقة ولاة أمورهم • وكان لحسن حظه قـد حصل على هذه الموافقة مما أتاح له أن يمضى عطلته فى دار الشريف يوسف الهندى فى برى ، يحيطه خلالها برعايته وعطفه •• وكـان الفتى يتلو على الشريف، متى انفض الضيوف والمريدون من حولـه -

وما كان أكثر ضيوفه ومريديه ـ الصحف التى كانت تمده بهـــا الحكومة ، فيتعرف منها على انباء الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وكان الفتى خلال أيام الأسبوع فى مدرسته يمضى وقت الفراغ فى لعب الكرة مع زملائه ، ويشترك فى الالعاب الرياضية الأخرى كالجـــرى والسباق والقفز وما اليها ٠٠ وكانت الرياضة جزءا لا يتجزأ مــــن المنهج الدراسى ، والتربية هى التربية العقلية والروحية والجسمية ٠

وكانت الخرطوم فى ذلك الزمان مدينة صغيرة،جعلتها الحكومـــة مقراً لدواوينها ، ومقاماً للعاملين فيها من الانجليز ٠٠ وكـــان يقطنها غير هؤلاء ، الموظفون من الأجناس الأخرى الوافدة اليها من مصر والشام ، ويقطنها أيضاً الأجانب من التجار ورجال الأعمـــال ٠٠ شوارعها منسقة تضاء ليلاً بمصابيح الجاز أو الشموع ، وتظللهـــا نهاراً الاشجار الباسقة الخضراء ٠٠ وكانت تربطها بأم درمان ـ مقـر الاهلين ومركز التجارة ، معدية تقل ركابها عبر النهر ٠٠ ولم تكن قنطرة النيل الأبيض التى نراها الآن قائمة قد تم تشييدها الآ فى عام ١٩٢٧ ٠ وكان يخترق شوارع الخرطوم الرئيسية عندما كان صاحبنا فى المدرسة الابتدائية ، ترام بخاري يسمونه "السمع" ٠٠ وتكثر فيها العربات التى تجرها الخيول ـ الحناطير ، كما تكثر الحمير التـــى تقل الناس من مكان لآخر بأجور زهيدة ، يقف معها أصحابها فـــى زيهم المميز لهم ، يحملون كرابيجهم فى ايديهم،يلوحون بها فـــى الهواء ، وهم ينادون الفرنجة لركوبها فى لغة انجليزية ركيكة :ـ

Donkey me ride you, Khartoum Palace, Piastre Two

وهذا معناه :

اركب حمارى الى سراى الخرطوم ، وانفحنى قرشين ٠

ولم تكن الخرطوم فى ذلك الزمان قد عرفت السيارات،ولا الدراجات أو البصات من وسائل النقل التى تزحم شوارعها اليوم ٠ وكانـــت مدينة نظيفة بفضل اقبال المسئولين عن الخدمات الصحية فيها علـى

أداء واجبهم ، رغم قلة الموارد ، لم تكن فيها دور للسينما أو اللهو ، جامعها الكبير يرتاده الناس لأداء الصلاة ، حتى اذا ما فرغوا من صلاة العشاء انصرفوا الى بيوتهم ، لينعموا فيها بنوم هانيء طويل ٠

وكان عدد المدارس الابتدائية فى السودان كله حينئذ لا يتجاوز عشراً ، التعليم فيها بالمجان ، وأساتذتها خليط من المصريين والسودانيين ٠

ومن المدرسة الابتدائية انتقل الفتى الى المدرسة الثانوية ـ كلية غردون التذكارية ٠٠ وكانت المدرسة الثانوية الوحيدة فى البلاد، انشئت عام ١٩٠٢ على اثر نداء وجهه لورد كتشنر لقومه ليجودوا بالمال لانشائها ، تخليداً لذكرى غردون باشا ، الذى كان قد اغتاله جنود الامام المهدى عام ١٩٨٨٥ ، يوم فتح الخرطوم ٠

وفى الكلية عاش أحمد فى الداخلية كما كان يفعل فى المدرسة الابتدائية ٠ وكانت نفسه قد راودته أول الامر، أن يلتحق بالمدرسة الحربية ، ولكن ذلك لم يتحقق له فاتجه نحو الكلية عى كره منه ، ليواصل فيها تعليمه ومرة اخرى راودته نفسه أن يتمرد عليها ، وينتقل منها الى مدرسة المآمير ٠٠ ولكنه قبل أن يقدم على هذه الخطوة كانت تلك المدرسة قد انقفلت ابوابها ، على اثر المظاهرات التى اجتاحت البلاد استنكاراً للحكم الأجنبى ، والتى كانت تنظمها جمعية اللواء الأبيض بقيادة البطل على عبد اللطيف،وكانت تلك الجمعية ترفض الاستعمار الانجليزى وتقاومه ، وتتبنى شعارات الثورة المصرية ٠ وكان صاحبنا قد عاصر بعد ذلك،وهو فى سنته النهائية بالكلية،ثورة ١٩٢٤ ، وألم بانباء الثورة المصرية مما كان يقرؤه فى الصحف التى يعثر عليها فى دار الشريف يوسف الهندى ، ويطرب ويهتز لما يجده فيها من هجوم على الادارة الانجليزية ،

والاستعمار . وكان بعض زملائه ومعاصريه من التلاميذ قد انخرطوا فى جمعية الاتحاد ، وهى جمعية سرية تهىء النفوس للثورة على الاستعمار الاجنبى ، وتعد الشباب وتزوده بالعلم والمعرفة ، لبلوغ تلك الغاية الشريفة . وكان من أعضاء تلك الجمعية من التلاميذ الذين عاصرهم صاحبنا ، شفيق مينا ابن دفعته ، وتوفيق البكرى ، الذى بعثت به الجمعية الى مصر ليكمل تعليمه فيها ،ويمضى فيما بعد حياته بها ، ويصدر عدداً من الكتب فى تاريخ السودان ، ومنهم المهندس محى الدين جمال أبو سيف وغيرهم . وفى الداخلية التى كانت تأويه مع زملائه ، أمضى الدرديرى أحمد أسماعيل - زعيم حزب وحدة وادى النيل فيما بعد - ليلة سفره الى القاهرة لمواصلة دراسته فيها هرباً من نير الاستعمار .

واتاحت الكلية للطالب أحمد أن يمارس هوايته المفضلة ، لعب كرة القدم . وكان لاعباً ماهراً مقداماً .. نال جورب (الكمباين) فيما كانوا يسمونه وهو يمنح لخيرة اللاعبين تقديراً لهم . ونازل مع زملائه لاعبى الفريق الأول من طلبة الكلية ، فريق الدفاع فى مباراة شهيرة شهدها آلاف مؤلفة من المواطنين . وكان للكلية حينذاك مسرح ذو مدرجات تقام فيه الليالى الأدبية ، وتلقى القصائد الشعرية وتقدم المسرحيات . وكان صاحبنا يجد لذة لا تدانيها لذة فى متابعة هذا النشاط أو الاشتراك فيه .

الفصل الثانى

العمل في دواوين الحكومة

وفى أول يناير ١٩٢٥ عند اكماله لدراسته،وتخرجه من الكلية عـين موظفاً فى حكومة السودان بمرتب شهرى قدره ثمانية جنيهات،كان حظه منها أجر مناولته اياها لوالده فى سنجة،حيث عمل أول عهده بالخدمة كاتباً فى مركزها ٠ وكان هذا المرتب بمقاييس ذلك الزمان ثروة طائلة، وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد أن ثمن الثوب الرفيع الشأن للمرأة كان اربعين قرشاً مصرياً،فى ذلك الوقت ، وثمن طاقة الدبلان ذات الاربعين يارده خمسة وعشرين قرشاً ، وثمن طن الاسمنت المستورد مائة وخمسين قرشاً ، وأقة اللحم قرشين ، والخروف السمين خمسين قرشاً،ورأس السكر سبعة قروش،وعلى هذا فقس ٠ وكانت مطالب الناس محدودة ٠٠ نفوسهم عامرة بالثقة والايمان ، وتعلقهم بالمثل العليا عظيم،يعطون بايديهم اليمنى ما لا تعرفه الايدى اليسرى ٠

وظل صاحبنا فى سنجة ثلاثة اعوام ٠٠ واتاح له عمله فى مركزها أن يتعرف على مشاكل المنطقة ، ونشاط الادارة فيها ، وأن يرقب عن كثب تنفيذ السياسة التى تختطها الخرطوم - العاصمة - أو يبعث بها مدير المديرية من سنار لمفتشيه ٠ وكان يدير المراكز فى ذلك الوقت مفتشون بريطانيون ، يساعدهم مآمير ونواب مآمير مصريون - أول الامر - فسودانيون بعد ثورة ١٩٢٤ التى اندلعت بسبب ابعاد الجيش المصرى والموظفين المصريين من السودان،عقاباً لمصر على مقتل سير لى ستاك، سردار جيشها وحاكم السودان العام ، فى أحد شوارع القاهرة ٠ وكان صاحبنا يزجى اوقات فراغه فى سنجة ، وهو شاب فى مقتبل العمر ، فى القراءة والاطلاع ، مما ساعده على تجويد لغتيه العربية والانجليزية ، وكان له أحسن الأثر فى توسيع مداركه ، واثراء ثقافته ٠٠ وكان أيضاً

يمارس الرياضة فى ميادين الكرة والفروسية بركوب الخيل ٠٠ لا يشرب الخمر ، أو يمارس الفجور ٠٠ يؤدى واجباته الدينية على خير ما يكون الأداء ثم نقل الى الروصيرص ٠

ومن الروصيرص نقل الى كلية غردون فى الخرطوم ، مدرساً فى قسم اعداد الكتبة ٠٠ وهناك التقى بجماعة من الأبروفيين، وانعقدت له معهم أواصر الود والصداقة ٠٠ حسن أحمد عثمان (الكد) ٠٠ ومكاوى سليمان أكرت ٠٠ وكانا قد اشتهرا بشدة الذكاء ، وسعة الاطلاع ، وقوة البيان٠ واتيح له أيضاً أن يتعرف فيما بعد على ابراهيم يوسف سليمان ، وخضر حمد ، وابراهيم عثمان اسحق ، وعبد الله ميرغنى،واسماعيل العتبانى من شباب ذلك الزمان ٠

يحدثنا الأستاذ خضر حمد فى مذكراته عن الحياة العامة حينذاك فيصف نادى خريجى مدارس السودان بأم درمان بأنه كان مكاناً للقاءات والتسلية لا يصلح لعمل جاد ، أبوابه مفتوحة لكل خريج ، أو لمن نال تعليماً فوق مستوى الكتاب ، لهذا كان الناس يلتقون،لا على أساس فكرة أو مبدأ ٠٠ بينهم المنافقون والمخبرون ، ممن لا تشغلهم المآسى والمظالم التى تقع على المواطنين حولهم ٠

ويمضى فيقول :ـ

كان هناك رجال آخرون ، حديثو العهد بالتخرج (من الكلية) وآخرون قدامى يسعون لاصطياد الشباب للعمل الجاد ، وتوجيههم الوجهة السياسية الرشيده ، فانضممنا اليهم٠ وكان بيننا ابراهيم يوسف سليمان ، وعبد الله ميرغنى ٠٠ وكان قد سبقنا فى الانضمام الى هذه الجماعة مكاوى سليمان أكرت ، وحسن أحمد عثمان ، وأحمد خير ، و عوض الله محمد مرسال ٠٠ وكان لقاؤنا بهذه الجماعة أول الامر فى منزل الدكتور على خير (شقيق صاحبنا الذى نسرد طرفاً من قصة حياته فى هذه الصفحات) ٠ وكان غرض هذه

الجمعية هو توجيه نشاط الشباب الى العمل السياسى السافر ضد الاستعمار .

واضطر صاحبنا أن يترك عمله فى كلية غردون بسبب علة ألمت به ، وأقعدته عن العمل بعض الوقت . ثم نقل ، عند بلوغه الصحة والعافية، للعمل فى مكتب السكرتير الادارى بالخرطوم .. ولكنه ملّ الحياة فى هذه المدينة ، وضاق بها فسعى للنقل منها . وكان له ما أراد ، وتم نقله الى رئاسة المديرية بواد مدنى ، فظل بها ثلاث سنوات، أول الأمر كاتباً فى مكتب قمندان الشرطة ، ثم فى مكتب معتمد منطقة الجزيرة. وكان هذا المعتمد يتمتع بسلطات تفوق سلطات المفتشين الآخرين ، ومنطقة نفوذه تمتد من حدود الخرطوم الى سنار ، يشرف على شؤون المزارعين وأعمال الرى .. وكان مدير المديرية قد خوله كثيراً من السلطات التى تمكنه من التدخل فى اختصاصات المفتشين الآخرين ، مما أثار غيرتهم منه . وكان يمضى معظم وقته خارج المكتب ، بل خارج رئاسة المديرية ، فى طواف مستمر .. وكان له يومان فقط كل أسبوع يمضيهما فى مكتبه ، يصرف خلالهما اعماله ، ويستقبل كبار الزوار من موظفى شركة السودان الزراعية .. وكانت الملفات تنقل له فى مكتبه حيث يتخذ حولها من الاجراءات ما يتطلبه الأمر خلال الليل ، ثم يبعث بها الى المكتب فى الصباح .. وكان صاحبنا يرمق هذا الاهتمام بالعمل ، ويتزود منه خبرة تفيده فى مقبل أيامه .. ليس ذلك فحسب بل مكنه العمل مع هذا المعتمد من الالمام بمشروع الجزيرة ، والتعرف على كثير مما كان يجهله عنه .. ومكنه أيضاً من مراقبة هؤلاء الموظفين البريطانيين وهم يعدون التقارير السرية التى تشتمل على سير وافية لكل رجل ذى شأن فى المجتمع .. وكانوا يحرصون ألاَّ يطلع على هذه التقارير أحد غيرهم .. ولكن يد صاحبنا كانت تمتد اليها كلما واتته الفرص .

وكان خزان سنار الذى انشىء على النيل الازرق لرى مشروع الجزيرة

الذى قرر الحكم الثنائى انشاءه لانتاج القطن طويل التيلة،مما كانت تحتاج له مصانع الغزل والنسيج فى بريطانيا ، قد تم افتتاحه فى يناير ١٩٢٦ والأستاذ أحمد حديث عهد بالتخرج ، يعمل كاتباً فى مركز سنجة . وكان وزملاءه من الموظفين وغيرهم من المواطنين المستنيرين فى سنجة يقلبون الرأى فى هذا المشروع الجديد ، الذى حصلت حكومة السودان لانشائه على قرض بضمان الحكومة البريطانية ، ويتجادلون حوله .. وحول النتائج التى تترتب عليه .. وأثره على حياة المواطنين من أصحاب الأرض التى يقوم عليها ، ومن المزارعين الذين كانوا يستغلونها لانتاج الذرة وتربية الماشية . وكان الانجليز قد رسموا الخطط لانشاء هذا المشروع قبل اندلاع الحرب العظمى فى عام ١٩١٤ ، ولكنهم أرجأوا التنفيذ بسبب اندلاع تلك الحرب . وقد بدأ العمل الجاد لانشاء الخزان ، وحفر الترع الرئيسية والفرعية فى عام ١٩١٩ ، بعد انتهاء الحرب مباشرة . وكانت خطتهم أول الأمر أن يزرعوا ثلثمائة ألف فدان فى هذا المشروع ، وعلى نظام الدورة الذى يقتضى بأن تزرع ثلث المساحة قطناً كل عام ، ويزرع ثلث آخر بمحاصيل غذائية كالذرة واللوبيا ، ويترك الثلث الأخير بوراً ضماناً لخصوبة التربة ، وصيانة لها .

وكان الأهلون يستغلون أرض الجزيرة قبل قيام المشروع فى أنتاج المحاصيل الغذائية المطرية .. واقتضى قيام المشروع أن تجرى الحكومة عليها تسوية وأن تمسحها ، ففعلت .. وقسمت الأرض بعد ذلك الى حواشات، مساحة كل منها ثلاثون فداناً ، وزعتها على المزارعين، مراعية - ما أمكنها الامر - منح كل واحد منهم حواشته فى المنطقة التى كان يستغلها قبل قيام المشروع .. وقررت أيضاً أن تدفع لأصحاب الأرض ايجاراً رمزياً مقابل ادراجها فى المشروع .

وكانت قد أصدرت فى عام ١٩٢٠ اعلاناً أوضحت فيه أنها تعتزم أن تروى مساحة قدرها ثلثمائة الف فدان من خزان سنار .. وجاء فى ذلك

الاعلان أنها تعتزم أن تستأجر المساحات التى تحتاج لها فى الأعمال الزراعية ، وأن تشترى المساحات التى تحتاج لها فى أعمال دائمة كالقنوات والترع والمبانى . وأوضح الاعلان أيضاً أن الايجار السنوى يسرى لفترة أربعين عاماً ، ولكن الحكومة تحتفظ لنفسها بالحق فى مد هذه الفترة اذا ما أقتضت الضرورة ، أو المصلحة العامة ذلك . وقالت ان أصحاب الأرض ينالون أفضلية على غيرهم فى الحصول على الحواشات . وجاء فى الاعلان أنه يسمح للمزارعين أن يزرعوا كميات وافرة من الذرة ـ بالاضافة الى القطن ـ لاستهلاكهم واستهلاك اسرهم .

وفى عام ١٩٢١ ضمن هذا الاعلان فى قانون سمى قانون أراضى الجزيرة ، فيه تحدد الايجار السنوى للفدان الواحد بعشرة قروش ، وثمن الفدان فى الأرض التى تحتاج لها الحكومة فى شق الترع أو انشاء المبانى بجنيه واحد !

وتقرر أن يقوم المشروع على أساس شراكة بين حكومة السودان ، وشركة بريطانية اسمها شركة السودان الزراعية ، والمزارعين . وكان على كل من الشركاء الثلاثة مسئوليات محددة ، ولهم حقوق محددة أيضاً .. كانت الحكومة مسئولة عن دفع نفقات الأعمال الكبرى ، وعن حفر الترع الرئيسية ، وكانت الشركة مسئولة ـ تحت اشراف الحكومة عن حفر الترع الصغيرة أو الفرعية ، وعن ادارة المشروع ، وتمويل المزارعين ، ومسئولة أيضاً عن حلج القطن وتسويقه ، والاشراف على العمليات الزراعية . وكان المزارعون مسئولين عن انجاز العمل الزراعى ، ونظافة الأرض ، وتوفير العمال ، ولقيط القطن . وكان من المقرر أول الأمر أن تقسم الارباح الناجمة عن بيع القطن بين الشركاء الثلاثة ، للمزارع أربعون فى المائة منها ، وللشركة خمسة وعشرون فى المائة ، وللحكومة خمسة وثلاثون فى المائة .. ولكن هذه الاسس عدلت فيما بعد فارتفع نصيب الحكومة الى اربعين فى المائة ، وانخفض نصيب الشركة الى عشرين فى المائة .. وبفضل هذا الأسلوب أصبح المزارعون فى مشروع

الجزيرة شركاء لا اجراء • وكان لهم كل عائد المحاصيل الأخرى غير القطن •

وكان من الشخصيات البارزة التى اوعزت لحكومة السودان أن تتعامل مع الشركة ، سير جيمز كرى ، الذى كان أول مدير للمعارف في السودان عند قيام الحكم الثنائى فى عام ١٨٩٨ • وكان قد عين عقب الحرب العظمى رئيساً لمؤسسة الامبراطورية البريطانية لزراعة القطن ، التى انيط بها مسئولية زيادة انتاج القطن فى المستعمرات البريطانية لتقليل اعتماد صناعة الغزل والنسيج فى بريطانيا على القطن الامريكى • وكان جيمز كرى مسئولاً الى حد كبير عن تأليف المجموعة التى كونت شركة السودان الزراعية • وكانت الحكومة البريطانية قد ضمنت حكومة السودان فى اعقاب ١٩١٩ فى قرض قدره ستة ملايين من الجنيهات لتمويل أعمال التعمير فى الجزيرة، بما فى ذلك تشييد الخزان • وقد عهد بأعمال حفر الترع الى مصلحة الرى المصرية التى كان يشرف عليها خبراء انجليز • وفى عام ١٩٢١ اكتشفت الحكومة أنه - رغم انفاق القرض كله تقريباً - لم ينجز من العمل المنشود الاّ نصفه ، مما اضطر الحكومة البريطانية لطرح المتبقى منه فى عطاءات • وحصل السودان على قرض جديد بضمان بريطانى أيضاً لاكمال العمل ، وبهذا امكن انجازه فى عام ١٩٢٥ ، العام الذى تخرج فيه الاستاذ أحمد خير من كلية غردون التذكارية ، وعين موظفاً فى مركز سنجة •• على بعد اميال قليلة من موقع الخزان الجديد •

وكان كثير من الشباب السودانى المستنير ، وصاحبنا الذى نروى سيرته منهم ، يتشككون فى نوايا الانجليز ، ويرون فى نزعهم لأراضى الناس فى الجزيرة لتنتفع منها الشركة البريطانية ظلماً فادحاً ، واستغلالاً بشعاً • وقد اشاروا الى هذا كله الى المنشورات التى كانوا يصدرونها فى مستهل العشرينات •

ويعلق على افتتاح الخزان ، وقيام المشروع ، ومحالج القطن فيه

الدكتور محمد حسين هيكل ، رئيس تحرير جريدة السياسة المصرية عند قيام الخزان ، ورئيس حزب الاحرار الدستوريين المصرى فيما بعد ، بل ورئيس مجلس الشيوخ في العهد المصرى الملكى ، يعلق فى كتابه الذى اسماه(عشرة أيام فى السودان، فيقول :ـ

" أليس عجيباً أن تمتد يد الحضارة لتقيم فى هذه النواحي البادية هذه الآلات الضخمة العظيمة ، التى أتى بها من انجلترا على متون البحار قطعاً ، وها هى ذى تدور الآن لتحلج مئات القناطير ، وتقدم لمئات السودانيين عملاً كانوا فى غنى عنه بقناعتهم بعيش البداوة الهنيء . ولكن انجلترا يجب أن تتغذى بالقطن ، لينال عمالها واشرافها أكبر حظ يريدون نواله من المتاع بالحياة ، فيجب لذلك أن يخرج أهل السودان ، وغير أهل السودان ، على ما الفوا منذ مئات السنين ، وأن ينتجوا القطن وغير القطن كارهين لهذا المجهود أو قيامهم به .. "

الفصل الثالث

من واد مدني إلى كسلا

من واد مدني ، التي بقى فيها أحمد خير اربع سنوات ، أقبل خلالها على الاطلاع والقراءة على نحو ما كان يفعل في الخرطوم ، ويمارس الرياضة البدنيه نقل الى كسلا في شرق السودان .. وكان ذلك في عام ١٩٣٤ ، وكان لم يزل في مقتبل العمر . يصفه صديقه الذى زامله في تلك المدينة السيد محمد عثمان يسن بحدة الذكاء ، واتقاد الذهن ، وزلاقة اللسان . يقبل على اللغتين الانجليزية والعربية فيلتهم في شره كل ما تمتد اليه يده مما يكتب بهما ، ويجعل نادى الموظفين هناك منطلقاً للنشاط الرياضى ، والاجتماعى ، والثقافى ، ويدخل في كسلا - لأول مرة - الأدب الاشتراكي الذى كانت تعكسه المجلات والكتب الصادرة عن جماعة الفابيين الانجليزية (FABIANS) وكان بالاضافة الى هذا يقبل على عمله بمكتبه في اهتمام عظيم ، ويحرص على قراءة كل ما تقع عليه يده من ملفات فيه .. حتى خاطبه ذات يوم صديقه دكتور على باخريبه ، طبيب المستشفى، وقد كان شاعراً ، خاطبه قائلاً :

أأحمد الخير والأيامُ مقبلةٌ
مالى أراك غريقاً في الدوسيهات
تُمسي وتصبحُ لا (جياً)[1] لقيت
ولا (افساً) ولا حتى العلاوات

وعقد صداقات قوية مع سراة المدينة وزعمائها ، وفي مقدمتهم السيد الحسن أحمد الميرغني زعيم الطائفية الختمية في تلك المنطقة . وكان يحث اصدقاءه على القراءة والاطلاع .

وحاول أحمد خير وهو فى كسلا أن يلتحق بمدرسة الحقوق عند انشائها فى عام ١٩٣٥ ولكن امنيته هذه لم تتحقق له مما كان مثار شيء من الشقاء فى نفسه لبعض الوقت ، لا سيما وقد التحق بها صنوه وصديقه محمد أحمد ابو رنات فى من التحقوا ٠

وينقل أحمد خير الى واد مدنى مرة ثانية فى عام ١٩٣٦ ٠ وهناك يدعو لقيام مؤتمر الخريجين على نحو ما نصف فيما بعد ٠ وتترامى أنباء نشاطه الى زملائه فى كسلا، فيطربهم ذلك منه ويهزهم هزاً عنيفاً ٠ ويحيه صديقه الشاعر توفيق صالح جبريل ، الذى كان من فحول الشعراء والاداريين المتمردين على الاستعمار ، يحييه شعراً فيقول :ـ

أأحمد لما عدت عادت لنا المنى
محققة تحدوك والعود أحمد
يسير بها صنوان جد ومنطق
ويسمو بها طهران قلبك واليد
ألا أيهذا الليل ماذا تكنه
تكشف لنا ياليل هل أنت سرمد
ويا خير ان الخير أن تحمد السرى
اذا صد اناء الظلام التجدد
اثرنا فقد ضقنا وانا بحاجة
لجلد له أيد وأنك أيد
لأنى أخشى أن يضل جهادنا
وان قسمت تلك الجهود ستنفد
علمت بأن الحق بالعلم يهتدى

---

(١) جي واف (G& F) من درجات الموظفين يبلغونها بعد مضى عدد من السنوات فى خدمة الحكومة ٠

وليس لنا الا الحقوقــى منجــد
فحطمت أغلال الوظيفة عندمـــا
سمعت نداء الله يدعوك أحمــد
تهجدت والأشعار حولك خشــع
تسامى معانيها اليك وتسجــد
مهذبة لما جمعــت شتاتهـــا
بذهنك تستجدى واياك تعبــد
نزلت بأكناف الجزيرة فانـــبرت
منابرها تدعو فتاهـــا وتنشــد
هنا منتدى شعر وذا بيت حكمـة
وتلك ثقافات وذلك معبــد
وفى التاكة السمراء والقاش ثائــر
كدأبك والامواج تدنو وتبعــد
لمحت خلالا انبأتنى خلالهـــا
بأنك أنت المنقذ المتمــرد
اذا بك والاهوال تنثال ثائــر
مع الحق لا تعنو ولا تــتردد
الا أيها القاش العنيد تحيـــة
فلى ملعب فى شاطئيك ومرقــد
أنين السواقى الساقيات جوانحــى
بسمعى وان المدى يــتزود
وتلك الظلال المرسلات عشيــة
الى المرج لا تمضى ولا تتقيــد
اثرت شجونى فادكرت مراتعــى
الا أين ذاك الناعم المتــأود

كان للاستاذ أحمد خير على الادارةوالسياسة الانجليزية فى السودا ن مآخذ كثيرة خطيرة سردها فى كتابه " مآسى الانجليز فى السودان "

الذى أصدره فى عام ١٩٤٦ باسم الوفد السودانى للمفاوضات البريطانية المصرية التى عقدت فى القاهرة حينذاك لمراجعة معاهدة ١٩٣٦ ، وهو يعتبر المبدأ القائل " فرق تسد " حجر الزاوية فى كيان الاستعمار البريطانى مما تم تطبيقه فى السودان • وكان فى مقدمة ما فعله ذلك الاستعمار ، خدمة لهذا المبدأ ، ابعاد النفوذ المصرى ومحوه من تلك الشراكة غير العادلة ، الحكم الثنائى •

يقول فى كتابه :ـ

" منذ اعادة فتح السودان فى عام ١٨٩٨ ، والبريطانيون يفكرون فى الوسائل التى يتخلصون بها من النفوذ المصرى الذى لم يكن فى يوم من الأيام قوياً ولكن شبحه كان دائماً حجر عثرة فى سبيل تطبيق السياسة الانجليزية ، ففى عام ١٩٢٤ هب السودانيون فى حركة تحريرية ما لبث أن اشترك فيها العسكريون فأنقلبت الى ثورة مسلحة اصطدموا فيها بالجيش الذى استطاع اخمادها •• وكان جزاء السودانيين فيها القتل والسجن والتشريد والتعذيب،مما تقشعر من هوله الأبدان • وعند ذلك وجد الانجليز فرصتهم الكبرى،وربطوا هذه الحوادث بمقتل السردار فى مصر ، فطرد الجيش المصرى والمصريون المدنيون من السودان ، كما طرد كثير من الضباط السودانيين وحكم على بعضهم بالاعدام ، ونفى البعض الآخر الى مستنقعات بحر الغزال،حتى لقى حتفه من جراء الاوبئة والامراض القتالة •

ومنذ تلك اللحظة والحكم فى السودان انجليزى لحماً ودماً •• واتخذت الادارة طريقاً جديداً يرمى الى استغلال الشعب ، وتفكيك أوصاله ، وبذر الفساد والتفرقة بين أبناء البلد الواحد مع ايهامهم بأن هذا الطريق هو الذى يأخذ بناصرهم الى الرقى والتقدم والرفاهية •

ولم تكتف الادارة الانجليزية بهذا فيما يحدثنا الاستاذ أحمد خير في كتابه،بل اخذت تغرس بين أفراد الشعب بذور الكراهية للمصريين

وتعمق هذا الشعور بين المتعلمين ورجال القبائل من أهل السودان ٠ أوهموهم أن المصريين يريدون استعبادهم واستغلالهم على نحو ما استعبدوهم من قبل فى فترة الحكم التركى المصرى ، وأنهم يريدون أن يستأثروا دونهم بمياه النيل وبالتالى حرمانهم من التقدم الزراعى ٠٠ وكان مجال التعليم أكبر ميادينهم لتنفيذ سياسة التفرقة،وابعاد الثقافة المصرية والعربية والدينية أو اضعافها ٠

وفى مجال الادارة اغمض الانجليز أعينهم عن السياسة التى كانوا قرروها من قبل،توطئة لادخال نظام الحكم اللامركزى،من تأسيس لمجالس للمدن واخرى للمديريات ، واستبدلوها بالادارة الاهلية مما يعكسه منشور سرى صادر عن مكتب السكرتير الادارى فى مستهل عام ١٩٢٦ ، جاء فيه :ـ

" واضح أن أكثر رجال المديريات (أى المديرون والمفتشون الانجليز) لا يؤيدون فكرة انشاء مجالس رسمية ولكنهم يوافقون على الأخذ بمبدأ المشاورات مع كبار الوطنيين فى اجتماعات خالية عن الشكليات ، ويوافقون أيضاً على زيادة نفوذ زعماء القبائل وسلطتهم القضائيه والادارية ٠ وعليه فقد قرر مجلس الحاكم العام عدم تنفيذ مشروع المجالس البلدية " ، وترتب على السياسة الجديده البديلة اصدار قانون المحاكم القروية،وقوانين اخرى تهدف الى تقطيع أوصال البلاد على أسس قبلية ٠ ولخص هذه السياسة حاكم السودان العام ، سير جون مفى بقوله :ـ

" ان السودان يجتاز الآن عصره الذهبى ٠٠ ولكن هذه الفرصة لن تظل طويلاً ٠ لذلك ينبغى علينا أن نتخذ الخطوات العملية قبل فواتها لوضع الأسس التى يقوم عليها بناء ثابت مستديم من أجود المواد التى بين أيدينا ٠ اذ لا يزال لدينا بالبلاد نظم وأوضاع قبلية ، وقوانين محلية ،وتقاليد قديمة وان اختلفت فى أثرها بين اقليم وآخر ولكن كل ذلك سائر الى الزوال والفناء امام موجة الأفكار العصرية ، وقيام الجيل

الجديد، ان لم نخطها بسياج منيع من التحصينات"

وكانت الحكومة فيما يفيدنا الاستاذ أحمد خير في كتابه قد عمدت فعلاً الى الاعتراف بهذه النعرة القبلية رسمياً، فاثبتتها في الأوراق الرسمية واشترطت ضرورة تسجيلها في العرائض والشهادات المدرسية ودفاتر المواليد، وسجلات المحاكم، والخرائط ، كما اخذت تلقنها للتلاميذ في منهج الجغرافيا . وكان تعتبر هذه الاوراق ناقصة وباطلة ما لم يذكر فيها الشخص اسم قبيلته !!

لن يقف الأمر عند هذا الحد بل مضت السياسة الانجليزية - خدمة لمآربها - تقفل جنوب السودان في أوجه أبناء الشمال ، وتحارب من استوطن منهم في الجنوب أو نزح اليه بغرض التجارة .. ضيقت عليهم الخناق في ارزاقهم وعبادتهم وصبت عليهم من صنوف العسف والارهاق ما يذكر الانسان بمحاكم التفتيش وعصور الظلام الوسطى في اوربا، فيما يصف الاستاذ أحمد خير .

ومن الناحية الأخرى شجعت الارساليات المسيحية، من اوربيين وامريكان على ارتياد تلك المجاهل واستيطانها، بغرض التبشير للدين المسيحي ، وأمدت المبشرين بالأموال المقتطعة من الميزانية العامة للحكومة، زيادة على الأموال التي كانت تنزل عليهم من دعاة التبشير في اوربا وامريكا . وتركت للمبشرين شؤون التعليم، والانفراد بتنظيمه والاشراف عليه ، وتوجيه سياسته وبرامجه . وبهذا انتشرت مدارس المبشرين تشن الحرب على اللغة العربية والدين الاسلامي .

يقول الاستاذ أحمد خير في كتابه نقلاً عن المضبطة الرسمية لاجتماع المديرين السنوى لعام ١٩٤٥ ما يلي :-
" من العبث الفصل بين التعليم والدين . ولما كانت المسيحية أصلح لأهالي الجنوب من الاسلام فانه ينبغي والحالة هكذا أن تكون اللغة الانجليزية هي لغة التعليم في الجنوب ، كما انه يتحتم ارسال

النجباء من الطلبة فى الجنوب الى مدارس وكليات يوغندة حيث ترسخ عقيدتهم المسيحية " .

وبسبب هذه السياسة المتعمدة ظلت مناطق الجنوب اما وثنية لا تعرف الله ولا الرسول ولا المسيح،واما مسيحية . ولم ينتشر الاسلام بينها الا قليلاً . وبهذا نجح الاستعمار البريطانى فى التفرقة الدينية بين الشمال والجنوب تمهيداً لفصل الجنوب،وفق خطة مرسومة باعداد محكم، تسندها اللوائح والأوامر الصادرة تحت قانون الجوازات والرخص لسنة ١٩٢٢ المسمى أمر المناطق المقفلة،والذى لم يقتصر أثره على الجنوب وحده بل امتد الى جهات اخرى كثيرة من السودان . ويحرم هذا القانون الاتجار على كل السكان الا بجواز خاص . وقد حمل هذا القانون فى طياته ما هو أنكى من ذلك ، فأجاز للسلطة الادارية اخراج أى سودانى من تلك المناطق دون أن تثبت عليه جريمة ضد القانون وبدون أن يعرض على محكمة رسمية .

وينتقل الاستاذ أحمد خير بعد هذا فى كتابه فيحدثنا عن سياسة الانجليز التعليمية فى السودان،وسياستهم الاقتصادية،وعن التشريع والخدمات الطبية،فيقول ان غرض التعليم كان منذ بداية ادارتهم تدريب عدد محدود من الموظفين والعمال يمكن الادارة من الاستغناء عن خدمات الاجانب باستثناء الانجليز منهم . وقد حدد هذه السياسة لورد كرومر وكيل بريطانيا وقنصلها العام فى مصر فى تقرير رفعه للحكومتين المصرية والانجليزية عام ١٩٠٤ قال فيه :ـ

" يجب أن نعلم التلاميذ ما يؤهلهم لخدمة الحكومة فى الوظائف الكتابية الصغرى بمرتبات تقل عن مرتبات الكتبة الذين يؤتى بهم من الخارج . "

يقول الاستاذ أحمد خير :ـ

" ليس أدل على سوء النية،وتعمد الابطاء فى السياسة التعليمية من منطلق الارقام وضآلة المخصصات المالية التى تنفقها الحكومة على التعليم بالنسبة للميزانية العامة فى بلد كالسودان يحتاج الى التعليم قبل كل شيء ، اذ لم يزد ما ينفق عليه من ثلاثة فى المائة من الميزانية حتى عام ١٩٣٦.

ويمضى فيقول :-

جاءت هذه الادارة وفى البلاد آلاف المدارس التى تعنى بتحفيظ القرآن . وكانت الثورة المهدية ما زالت ماثلة فى اذهان الناس وهى ثورة غذتها مدارس القرآن وتعاليم الدين ، وقام بها زعيم جليل لقى تأييداً عاماً من جميع ابناء السودان الذين تستجيب نفوسهم لدواعى الدين أكثر من أى شيء آخر . لذلك خشى الاستعمار الآثار المترتبة على مثل هذه المؤسسات فعمد الى مناهضتها ومحاربتها بشتى الوسائل حتى تم له ما اراد .. ثم تسلمت الحكومة شؤون التعليم فى البلاد فأخضعته لقانون يحرم على أى شخص انشاء مدرسة دون الحصول على تصريح كتابى من الحاكم العام . وجعلت التعليم فى مراحله المختلفة بالمصاريف . ورغم الاقبال العظيم عليه فقد كانت المدارس قليلة لدرجة فاضحة لا تتناسب مع رغبة الاهلين أو مع عدد الأطفال الذين هم فى سن التعليم .

ويورد ارقاماً تعكس هذا القصور فيقول أن عدد المدارس الأولية فى عام ١٩٤٢ بلغ ١٨٦ مدرسة بها ٢٦٢٩٠ تلميذاً وتلميذه ، من اطفال فى سن التعليم يربو عددهم عن مليونين ، أما عدد التلاميذ فى المدارس الوسطى البالغ عددها فى عام ١٩٤٩ احدى عشرة مدرسة،فقد كان ١٧٦٣ تلميذاً وتلميذة . والتعليم الثانوى فى مدارس الحكومة على قلتها لم يكن يستوعب فى سائر ارجاء البلاد اكثر من خمسمائة وخمسين طالباً.. أما التعليم العالى فقد كان رمزياً لا يتجاوز عدد طلبته فى سائر

الكليات مائتين ، بل كان عدد المعلمين فى بعض الكليات يفوق عدد الطلبة !! عام ١٩٤٠ .

ولم يكن فى السودان من التعليم الصناعى تحت الادارة الانجليزية ما يستحق الذكر .

ويتناول الاستاذ أحمد خير فى كتابه سياسة الادارة الانجليزية فى المجالات الأخرى ، الاقتصادية والاجتماعية والطبيه وغيرها بالاستعراض والنقد والتعرية .. ويخلص من هذا كله الى ما ظل يردده ويردده معه زملاؤه من الخريجين من أنه لا سبيل لتقدم السودان الا بفكاكه من قبضة الاستعمار الانجليزى .



الفصل الرابع

معاهدة ١٩٣٦ والسودان

كان عام ١٩٣٦ ينذر بريطانيا وحلفاءها، بل والبشرية جمعاء، بشر مستطير . فيه أحكم ادولف هتلر قبضته الحديدية على المانيا ، وبث مبادئه النازية ، وتمرد على القيود العسكرية والاقتصادية والاقليمية التى كانت قد فرضتها على المانيا معاهدة فرساى عقب هزيمتها فى الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) وأعاد تسليح بلاده استعداداً لجولة أخرى ضد اعدائها يكون له فيها النصر فترتفع راياته عالية خفاقة تستظل بها الدنيا بأسرها ، وتسود مبادؤه ، وتعلو كلمته ، وتطغى ارادته .. وكان أهل المانيا وهم شعب أبى عظيم الاعتداد بنفسه ، قد آمنوا به ، وانقادوا له ، يحلمون ببلوغ النصر الذى وعدهم به، والنعيم المقيم ..

وكانت الجيوش الطليانية فى مستهل مايو من ذلك العام قد دخلت اديس أبابا عاصمة اثيوبيا ، واخضعت تلك الامبراطورية لسيطرتها ، وثلث عرش النجاشى فيها ، وقهرتها ، وفرضت سلطانها عليها بعد جهاد مرير وحرب طاحنة ما كان للحبشة أن تنهزم فيها لولا أسلحة الخراب والدمار ، من غارات جوية لا قبل لها بها ، وغازات سامة محظورة ، استخدمتها ايطاليا بقيادة زعيمها الفاشى بنيوتى موسلينى، غير حافلة بالمواثيق الدولية، أو استنكار البشرية فى سبيل بلوغ غاياتها ومراميها ، واشباع اطماعها . وكانت عصبة الأمم التى فرضت أول الأمر عقوبات عليها لعدوانها الظالم ، وانتهاكها للقيم والمبادىء قد عادت فنكصت على اعقابها ، واستسلمت للأمر الواقع فالغت تلك العقوبات رغم عضوية الحبشة المغلوبة على أمرها فيها .

ثم ما هو الاّ وقت قصير يمضى على قهر الحبشة واستعمارها حتى يشعل الجنرال فرانكو فى اسبانيا ثورة عسكرية ، تندلع على اثرها حرب أهلية طاحنة ، ويستنجد فى ثورته بالمانيا النازية ، وايطاليا الفاشية ، ويحصل منهما على العون الحربى الذى ينشده ٠

وبهذا كانت الدلائل كلها تنذر بتقلص النفوذ البريطانى على الدنيا ودنو أجله ٠ ولم تملك هذه الامبراطورية التى كان قادتها يفخرون باتساع رقعتها وشدة مراسها ، وسطوع الشمس عليها أبد الدهر، الاّ أن تنفعل مع هذه الاحداث ، وتتهيأ وتستعد لمنازلة اعدائها اذا ما وقعت الواقعة ٠

وكان من بين ما فعلته فى هذا الصدد استرضاؤها لمصر، واقبالها فى جد لعقد معاهدة معها بعد مماطلة منها ومفاوضات فاشلة متعثره دهراً طويلاً ٠ وما كانت بريطانيا لتقلع عن سياستها المتجبرة واستعلائها لولا دقة الظروف الدولية،وشدة حرجها فى ذلك الزمان وبهذا يمكن القول بأن معاهدة ١٩٣٦ بينها وبين مصر، كانت نتيجة حتمية لغزو ايطاليا للحبشة ونصرها عليها ونهوض المانيا من كبوتها تحت قيادة هتلر ٠

وكانت المفاوضات التى اسفرت عن ابرام هذه المعاهدة قد بدأت أول الأمر فى القاهرة بين المندوب السامى سير مايلز لامبسون والحكومة المصرية برئاسة مصطفى النحاس باشا ، زعيم حزب الوفد وخليفة سعد زغلول ٠ ولكن المعاهدة نفسها حين تم الاتفاق على بنودها ، وقع عليها فى لندن وزير الخارجية البريطانية ، مستر انطونى ايدن ووفد مصرى ممثل لسائر الاحزاب السياسية المصرية ، يقوده رئيس الوزراء النحاس باشا ٠

وكانت الطبقة السودانية المستنيرة من الشباب المتوثب للحرية تتبع سير تلك المفاوضات فى القاهرة بشغف شديد ، ويقرأ انباءها فى الصحف والمجلات المصرية التى يحملها البريد الى الخرطوم، ويتناولها

فى مجالسه ومنتدياته بالتحليل والمناقشة والتعليق ·· ويعقد عليها الآمال الجسام فى أن تحرر بلاده من الادارة الانجليزية وقبضة الاستعمار البريطانى · وكان هذا الشباب يجرح كرامته ، ويدمى مشاعره ، ويقلق مضاجعه،ما كانت تمارسه الادارة الانجليزية من اذلال للسودان وأهله ، وتمزيق لأوصاله ، عقاباً له على ثورة ١٩٢٤ وحركة اللواء الأبيض التى كان يقودها البطل الشهيد على عبد اللطيف ، ويقف بها مع مصر فى ثورتها بصلابة ، ويردد مباداءها سبيلاً للتحرر الوطنى والانعتاق من السيطرة البريطانية · انتهجت سياسة البطش لترهب الأهلين، وارغمت الضباط والموظفين المصريين على مغادرة البلاد،فتضاءل النفوذ المصرى وفقد المثقفون السودانيون حلفاءهم الذين كانوا قد اكتووا مثلهم بسعير الاحتلال ، ممن كانوا يرجون عونهم فى الخلاص ، واسماع صوتهم للدنيا، ليس ذلك فحسب بل تغيرت نظرة الانجليز فى السودان للمتعلمين من أهله ، واتسمت بالحنق عليهم ، مما خلق أزمة ثقة عاتية بين الحكومة والطبقة المستنيرة فى البلاد ، وأدى الى ركود التعليم وتقليصه · وصاحب هذه النظرة من الحكومة للتعليم نظرة مماثلة فى السياسة الادارية ، اذ اخذت الحكومة تعتمد فى حقل الادارة وتصريف مسئوليتها على السلطات القبلية لا على المتعلمين · ففى يناير من عام ١٩٣٠، أصدر السكرتير الادارى بتوجيه من الحاكم العام منشوراً عن سياسة الحكومة تجاه جنوب السودان حددها بأنها العمل على قيام وحدات عنصرية قائمة بذاتها ، واحلال اللغة الانجليزية محل العربية ، وابعاد الموظفين الشماليين ، وتقييد الهجرة من الشمال الى الجنوب تنفيذاً لقانون المناطق المقفولة الصادر فى عام ١٩٢٢ ، وتشجيع التجار اليونانيين والشوام للعمل فى الجنوب لا الجلابة الشماليين ، وتشجيع الأهلين على ارتداء الملابس الافرنجية بدلاً عن العربية ، وتغيير اسمائهم العربية بأخرى زنجية أو افرنجية ، وكانت تلك السياسة ترمى الى فصل الجنوب أو بعض اجزائه ، خاصة الاستوائية ، عن الشمال وضمه الى ممتلكات التاج البريطانى فى شرق افريقيا

وفى مجال الاقتصاد تأثر السودان خلال النصف الأول من الثلاثينات ١٩٣١ - ١٩٣٤ بالأزمة الاقتصادية التى تعرض لها العالم ، واضطرت الادارة الانجليزية فى بلادنا ازاء هذا الموقف لاتخاذ اجراءات اقتصادية صارمة ، وخفض نفقاتها بصورة ملحوظة وتشريد كثير من الموظفين . وقررت أيضاً خفض المرتب الشهرى الذى كان يمنح لخريجى كلية غردون التذكارية عند تعيينهم فى دواوين الحكومة مما أدى الى اضرابهم الشهير فى عام ١٩٣١ ، واعتصامهم أول الأمر فى داخلياتهم ثم اخلاءها ومغادرة الكلية الى ديارهم .

كل هذا كان يجرح كرامة الشباب السودانى المستنير ويثير قلقه على بلاده ويقضى مضجعه .. فرأى فى المفاوضات الانجليزية المصرية بارقة أمل فى الخلاص ، أو على الأقل رفع الظلم وتصحيح الاوضاع الخاطئة ، وقد عبر عن هذه المشاعر الاستاذ أحمد خير أحسن تعبير فى كتابه " كفاح جيل " حين قال أنها قوبلت فى السودان بالسرور والاغتباط .. أول الامر بمزيج من البهجة والقلق،خشية من بلوغها نتائج مخيبة للآمال ، اذ كانت تداعبهم الآمال فى أن تعمل مصر على انتشالهم من براثن الامبراطورية البريطانيه فطفقوا يشيدون من طيف المفاوضات قصور الحرية والحياة الكريمة ، اذ كانوا قد اقتنعوا خلال الفترة التى تلت ثورة ١٩٢٤ بأن السودان اذا ما أنفصل عن مصر كتب له الفناء،واقتنعوا بضرورة زوال الحكم الثنائى لأن فى استمراره بقاء الانجليز فى السودان طليقين من كل قيد أو تقدير لمصلحة السودان .

هكذا كان شعور الطبقة السودانية المستنيرة المتوثبة للحرية فيما يروى لنا صاحبنا فى كتابه " كفاح جيل " .. ولكن الاشياء لم تسر كما كانوا يتمنون لها أن تسير .. لا بل تحول الأمل الذى كانوا يعقدونه على المفاوضات الى حسرة عندما حمل المفاوضون المصريون حقائبهم ويمموا صوب لندن لتوقيع نصوص عرف الانجليز فى السودان أنها لا تمس الوضع الادارى فى السودان فى قليل أو كثير .. ليس ذلك فحسب بل هى اعترفت بالاحتلال الانجليزى للسودان ، وايدت

استمرار اتفاقية الحكم الثنائى لعام ١٨٩٨ ٠

يقول الاستاذ أحمد خير فى كتابه :ـ

"خلقت هذه الأخبار، وقد انتشرت بسرعة البرق فى السودان،خيبة أمل فى النفوس ، وادرك السودانيون أن عاصفة المفاوضات أخذتهم على غرة، اخذتهم قبل أن يقوم من بينهم من ينذرهم كيلا يسرفوا فى التفاؤل ، ويسترسلوا مع الأوهام ٠٠ "

وواجه المتعلمون السودانيون الأمر الواقع ٠٠ وزالت الغشاوة عن أبصارهم ، وادركوا أن الأمة التى تظل نائمة حالمة فى الوقت الذى يكون فيه مصيرها فى الميزان،لا يحق لها أن تحتل مكانها تحت الشمس

وننظر الى المعاهدة لنستبين ما تم الاتفاق عليه فيها حول السودان، فنجدها قد نصت على استمرار ادارة السودان على أساس اتفاقية ١٨٩٨ ، وديعة فى يد الحاكم العام ممثلاً لدولتى الحكم الثنائى وجعلت الغرض من ادارته تحقيق الرفاهية لأهله دون أن تحدد معنى هذه الرفاهية أو توضح السبيل اليها ٠ وتركت السيادة على السودان معلقة كما فعلت قبلها اتفاقية الحكم الثنائى ، وخولت الحاكم العام حق تعيين الموظفين وترقيتهم واختيار البريطانيين والمصريين لملء الوظائف التى لا يوجد بين السودانيين أحد لشغلها ٠
ولم تشتمل المعاهدة فيما يهم السودان ويتعلق بمصيره الا على النقاط التالية :ـ

(١) استمرار ادارة السودان على أساس اتفاقيتى الحكم الثنائى
(٢) تحديد غرض الادارة السودانية بأنه رفاهية السودانيين
(٣) تعليق السيادة على السودان على نحو ما كانت معلقة فى اتفاقية ١٨٩٨ ٠
(٤) اعطاء السودانيين الاكفاء ـ اذا وجدوا ـ أسبقية على البريطانيين والمصريين فى شغل الوظائف فى بلادهم ٠

أما مصر فانها على الرغم من رفض بريطانيا لدعواها الرامية لفرض سيادتها على السودان ، أو على الأقل الاعتراف لها بهذه السيادة ، فقد حصلت عن طريق هذه المعاهدة على استرداد بعض الحقوق التي نزعها عنها المندوب السامي البريطاني في القاهرة ، لورد اللنبي على اثر مقتل سير لي ستاك، سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام في احد شوارع القاهرة عام ١٩٢٤، وذلك في انذار كان قدمه لسعد زغلول باشا، رئيس وزراء مصر يشتمل على عقوبات عدة من بينها ما يلي :-

" أن تصدر الحكومة المصرية خلال اربع وعشرين ساعة الأوامر بارجاع جميع الضباط ووحدات الجيش المصري من السودان مع ما ينشأ عن ذلك من التعديلات التي ستعين فيما بعد . "

وكان مما استردته مصر في معاهدة ١٩٣٦ حق اعادة جنودها للسودان مرة اخرى ، أسوة بالجنود البريطانيين ، لتكون تحت امرة الحاكم العام في الدفاع عن السودان .

وتوفر لمصر أيضاً - من الناحية النظرية على الأقل - حق تعيين المصريين وترقيتهم كالبريطانيين تماماً، وذلك للوظائف التي لا يتوفر لها سودانيون اكفاء .

ولم يكن حظ مصر في الهجرة للسودان ، رغم ما نصت عليه المعاهدة بأحسن من حظها في شغل الوظائف والمناصب العليا في ادارة السودان، وذلك لأن أبواب الهجرة للمصريين في المعاهدة قد قيدت بقيدين ثقيلين يمكنان الحاكم العام من قفلها قفلاً محكماً .. هما مقتضيات الصحة ومقتضيات النظام العام .

كان الاستاذ أحمد خير عند ابرام هذه المعاهدة شاباً قد بلغ الثانية والثلاثين من العمر ، قوى الجسم ، دافق الحيوية ، واسع الاطلاع عظيم الغيرة على السودان ، عامر القلب بالوطنية والصدق والاخلاص

وكان قد انضم الى الجمعيات الادبية التى نشأت على اثر انفضاض كثير من الخريجين عن ناديهم فى أم درمان بسبب التغول الطائفى عليه . فقد كان أول الأمر لصيقاً بجماعة الابروفيين فى أم درمان من امثال السادة حسن أحمد عثمان ومكاوى سليمان اكرت .. وابراهيم يوسف سليمان ، وخضر حمد ، وابراهيم عثمان اسحق .. حتى اذا ما نقل من الخرطوم الى واد مدنى عاصمة مديرية النيل الازرق، انشأ مع بعض اصدقائه من الابروفيين الذين قذفت به ظروف الحياة من العاصمة الى تلك المدينة جمعية ود مدنى الادبية ، وقد كانت من اكثر الجمعيات،ان لم تكن اكثرها، نشاطاً وارفعها شأناً ، واشدها تاثيراًعلى تطورالنهضة الحديثه .

يقول فى كتابه كفاح جيل عن هذه الجمعية :ـ

" نشأت هذه الجمعية فى رحاب نادى واد مدنى ـ قلب الجزيرة النابض كما تواضع الخريجون على تسمية المدينة .. نشأت فى صيف ١٩٣٦ فى قلة محدودة ، وهدوء وانطواء ، وكان قوامها أفراد من مدرسة ابى روف بأم درمان . وقد حرص القائمون بها على أن يكون الانتساب اليها مستنداً على رغبة العضو ، وأن تكون العبرة بالمواظبة على حضور الجلسات الاسبوعية والمساهمة فى الانتاج الأدبى وكان هدف الاعضاء هو تثقيف أنفسهم والمران على الاداء كتابة وارتجالاً . وكان اعضاؤها ينتبذون مكاناً قصياً فى النادى .. وقليلاً قليلاً ازدهرت الجمعية ترددت اصداء نشاطها فى الصحف والأندية الأخرى،وعقد لها لواء التقدير والاعجاب من المشتغلين بالأدب أو المسائل العامة .

" وقد فطن رجال الادارة الى ما يكمن وراء نشاط الجمعية فأتخذوها مقياساً لمعرفة الاتجاهات العامة ، وحرصوا ، عن طريق ضابط تعليم المديرية ، أن يوثقوا معها الصلات ، فأسهم فى نشاطها الموظفون الانجليز ، وزودوها بالكتب والمراجع عربية وانجليزية ، وكثيراً ما كان يثير ضابط التعليم ـ وهو انجليزى الجنسية ـ بعض الشؤون المحلية ، وبعض النظريات السياسية كالشيوعية والفاشية والديمقراطية لتلمس المشاعر العامة نحوها . ".

الفصل الخامس

قيام مؤتمر الخريجين

كان من أعظم منجزات الجمعية الادبية في واد مدني انبثاق فكـــرة انشاء مؤتمر للخريجين في رحابها ، وذلك على اثر خيبة الأمل التـــي ملأت نفوس الشباب والمستنيرين من اهل السودان عند توقيع معاهـــدة ١٩٣٦ التي انكرت عليهم حقهم في الادلاء برأيهم في مستقبل بلادهـــم بحجة قصورهم ٠ واخضعتهم من جديد لسيطرة الاستعمار الانجلـــيزي ٠ فقد هب الاستاذ أحمد خير بقدم محاضرة في هذه الجمعية في عام ١٩٣٧ بعنوان : واجبنا السياسي بعد المعاهدة"نادى فيها بانشاء المؤتمـــر ٠ ونجده يحدثنا عن الفكرة في كتاب " كفاح جيل " فيقول انها دعـــوة للنضال الوطني تهدف لاقامة الحرية بين مجموعة من البشر جثم علـــى صدورهم ، وخنق انفاسهم ، وتصرف في اقدارهم استعمار اجنبي وما كان ليكتب لهذه الفكرة النجاح لو لم تكن تعبيراً عن أماني جماعة مـــن الرجال كانت تنتظمهم الجمعية الادبية بواد مدني ، وعما كان يعتمـــد في نفوس الطبقة المستنيرة في سائر انحاء السودان ٠

ونستعرض المحاضرة فنجد صاحبنا يتساءل عن الخطوات التي يراهـــا الخريجون لازمة لرعاية مصالح الأهلين ، ونيل الحقوق الوطنية ٠٠؟

ويقول :ـ

" كيف يتأتى للخريجين حمل الحاكمين على الاعتراف بهذه الحقوق وكيف يعبرون عن تلك المصالح ٠٠ رفع مستوى التعليم واحترام الشعور القومي ٠٠ كيف يستنكرون ما يمس كرامة الأمة من قوانين وما يضعـــف وحدتها من لوائح ؟ كيف يجهرون في حزم وجد بأن سياسة الادارة الاهلية والادارة المالية ، والمعارف العمومية ، وقوانين العدل ، ونظـــام

شركات الاحتكار وكل ما يعرضه الحاكم من نظم يجب أن يكون موضع الشورى بينهم وأن يكون لهم فيه رأى محترم ٠ "

ويمضى فيقول وهو يخاطب الخريجين :ـ

"أيها الخريجون ما وسيلتكم وما حيلتكم للاطلاع على أسرار المالية والاقتصاد والتجارة وادراك حكمة تلك القروض الضخمة ، وما احاط بها من ظروف واثر فيها من عوامل؟

"ان المرء ليتساءل كيف يضطلع الخريجون بكل هذه الواجبات أو جلها وهم هيئة لا وجود لها ، واسم على غير مسمى ٠ والخريجون مشتتون فى البلاد ، تراهم فى العاصمة كثرة مختلفة الرأى ، متباينة المزاج ، وهم فى الاقاليم وعواصم المديريات أقلية من العمال المكدودين والـــة الحكومة المنهوكه ، أو هم كما وصفهم سير هارولد ، ماكمايكل فى كتابه " السودان الانجليزى المصرى " اذا ما استسلم السودانى العصرى الى احلامه ، رأى نفسه عضواً ممتازاً ، وزعيماً مرتجى لهيئة اجتماعية متحضرة ، لديها من وفير المال ما يكفى لجلب كل أسباب المدنية والرفاهية لبلاده ، حتى اذا ما ثاب الى رشده ، ايقن بأنه ليس الأ مستخدماً بسيطاً ذا أجر متواضع ، نشأ فى بيئه ساذجة ، حقيرة فى نظره ، متقيداً فى حياته المنزلية باغلال عادات همجية ، مؤمناً فى سويداء قلبه بأن ثقافته ليست الأ قشوراً ، وما أحلام نهاره الأ فكاهات"

ويواصل حديثه فينادى بالاتحاد الفكرى بين الخريجين أولاً ثم بمؤتمر الخريجين ٠ يقول :ـ

" اعنى بالاتحاد الفكرى انتظام الطبقة المستنيرة ولا أقول المتعلمة فى هيئه محكمة النظام لاستغلال القوة والنضال فى هذا البلد واستغلالها فى شتى النواحى فى الدعاية، فى التعليم والتربية ، فى المالية التجارة ، وفى الرياضة والفن ، وفى الخيرات والاجتماع ٠

ويشير في هذا الصدد الى تركيا الحديثه التى قامت على اكتاف المجلس الوطنى الكبير ، والى الهند وما بلغته من سمو بفضل المؤتمر ، والى حزب الوفد في القاهرة،والكتلة الوطنية في دمشق والمجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين ، وينادي بالثورة والتمرد على الخمول في السودان،وبقيام هيئة تنتظم الخريجين يولونها ثقتهم ، ويلتفون حولها،ويخضعون لها خدمة للمصلحة العامة ،

يقول :-

"واجبنا أيها السادة هو أن ننهض بأبي الاندية - نادي الخريجين. لنجعله معقلاً حصيناً للوحدة الفكرية ، وحدة السودان الحديث ،لنجعله نقابة عامة للدفاع عن كل ما يمس الوطن والمواطنين وهناك نغرس، ومن هنالك نعلن رسالة السودان الحديث - اذا ما انتظم السوداني المستنير في رابطة أو مؤتمر أو نقابة مركزها النادي بأم درمان وفروعها في الاقاليم،اذا ما نشر برنامجه القومي نكون قد عرفنا وحددنا واجبنا السياسي ."

نشرت مجلة الفجر التى أصدرها المجاهد الاستاذ عرفات محمد عبد الله من زعماء جمعية اللواء الأبيض،وكبار المثقفين والمفكرين من الشباب السوداني في عام ١٩٣٤،وآلت مسئولية تحريرها بعد وفاته في عام ١٩٣٧ للاستاذ أحمد يوسف هاشم،أبى الصحافة السودانية الحديثة ، نشرت محاضرة الاستاذ أحمد خير،فاستقبلها الخريجون وذوو الرأى من المواطنين اعظم استقبال،ووجدوا فيها تعبيراً صادقاً عما كان يعتمل في صدورهم ، ورائداً يهديهم سواء السبيل . وكان تجاوب المدارس الفكرية في العاصمة المثلثه مع ما اشتملت عليه تاماً ورأى الاستاذ أحمد خير أن يبعث بنسخة من محاضرته للجنة نادي خريجي مدارس السودان بأم درمان لتتدارسها .. وتقرر ما ترى في أمر تأسيس المؤتمر الذي نادت به .

اذن فقد كان السبب المباشر للمناداة بانشاء المؤتمر هو ما أصاب الشباب السوداني المستنير من خيبة أمل فى المعاهدة ، وكان الغرض من انشاء ذلك التنظيم تدارك الموقف فلا يؤخذ السودانيون على غرة اذا ما تقرر مراجعة المعاهدة أو تعديلها ، وأن يكون ذلك التنظيم الذى ينطق باسمهم،ويعبر عن امانيهم،ويذود عن حقوقهم .

وتتلقف لجنة النادى الفكرة فى حماسة،وترى فيها وسيلة جادة لخدمة المجتمع والنادى على السواء .. وتتألف لجنة تمهيدية لاخضاعها لدراسة جادة متأنية فى اجتماعات مفتوحة كانت تعقد فى دار النادى يوم الخميس من كل أسبوع . ويصف لنا هذه الاجتماعات الاسبوعية السيد خضر حمد من مؤسسى حزب الاتحاديين ، وقادة الحركة الوطنية ، ومؤسسى الحزب الوطنى الاتحادى فيما بعد، وأمينه العام والذى كان عضواً فى مجلس السيادة السودانى،قبيل انقلاب مايو المشئوم، يصفها فى مذكراته التى نشرت بعد وفاته فيقول :-

" بعد أن القى أحمد خير المحاضرة فى نادى الموظفين بواد مدنى أمام الجمعية الادبية أرسل نسخة منها لى وأخرى للجنة نادى الخريجين بأمدرمان . ومن هنا بدأ التفكير فى مؤتمر الخريجين ، وجد الناس فى التفكير والفكرة ووسائل تحقيقها واغراضها ،وكانت الرءوس فى الحقيقة خالية من معالم محددة يبدأ منها العمل أو ينطلق . أما نحن فما كنا نجهل ما نريد . كنا نريد بالمؤتمر أن يكون كالمؤتمر الهندى أو الوفد المصرى،يتولى قيادة الحركة الوطنية والسياسية ، ولكن من يستطيع أن يقول هذا فى ذلك الوقت ؟

" بدأنا بليال أشبه بالليالى الادبية نقيمها فى نادى الخريجين بأم درمان كل يوم خميس ، يفسح فيها المجال لكل متحدث ليقول كيف يريد المؤتمر أن يكون،وماذا تكون أهدافه ،وما هى آماله القريبة والبعيدة فيه . وتحدث الناس ، تتلاقى افكارهم احياناً وتختلف احياناً . وظهر أن كثيراً من الخريجين لا يفهمون المؤتمر المرتقب الاّ نقابة للموظفين

تنظر فى أحوال معاشاتهم وتصاريح السفر والترقيات والدرجات ، أى انهم فكروا فى أن يعالج المؤتمر شؤون طبقتهم . ولكن بالرغم من هـــــذه الافكار فقد كانت الاجتماعات ناجحة،واتسعت دائرة الذين يريدون أكثـر من ذلك ويبنون عليه امالاً عراضاً . وكان على رأس النادى أو سكرتاريته السيد اسماعيل الازهري وبعض الاخوة كأحمد محمد يسن،وعثمان شنـــدي ومكى شبيكة وآخرون . وكونا لجنة اسندنا سكرتاريتها للاستاذ جمـــال محمد أحمد،وكان بها الزملاء ابراهيم يوسف سليمان،وعبد الله ميرغنـي وبشرى عبد الرحمن صغير،والهادي أبوبكر،ومحمود الفكي،ودكتور ابراهيم أحمد حسين،وخضر حمد . وآلت على نفسها أن تزور كل خريج كبـير وتشرح له فكرة المؤتمر وتدعوه للمساهمة فيها . وانتهينا بعد ذلـك الطواف الى أن اجماع من اتصلنا بهم قد انعقد على تأييد الفكرة "

واسفرت تلك الجهود كلها عن تأليف لجنة تحضيرية لرسم مسودة دستور ولوائح المؤتمر المقترح . وتقرر أن يدعى الخريجون لاجتمـــاع تأسيسى للمؤتمر فى فبراير من عام ١٩٣٨ يعقد فى نادى الخريجـــين بأم درمان ، وقد اختارت اللجنة التحضيرية اليوم الثانى من عيـــد الأضحى فى ذلك العام موعداً للاجتماع ليتسنى لأكبر عدد ممكن مـــن الخريجين حضوره،خاصة من كان يعمل فى الاقاليم القريبة من العاصمة .

وفى الموعد المحدد للاجتماع تدفق الخريجون نحو مكان الاجتمـــاع من كل حدب وصوب ، يحدوهم الأمل ، وتدفعهم الرغبة الصادقة فـــى تشييد الصرح الوطنى الجديد . وكان عددهم الفاً ومائة وثمانين خريجاً، وهو رقم كبير اذا ما قيس بمقاييس ذلك الزمان ، اكتظت بهـــم دار النادي حتى اوشك عقد النظام فيها أن ينفرط لولا مهارة السيـــد اسماعيل الازهري فى ادارة دفة النقاش،وفى حمل المتحمسين مـــن المؤتمرين على ضبط النفس . وقد عبر كثير من الاعضاء عن بهجتهـم بمولد المؤتمر نثراً وشعراً ، وكانت كلماتهم تستقبل بالهتاف للوطـن

وهز الشاعر على نور الذى لقب فيما بعد بشاعر المؤتمر، القلوب والمشاعر هزاً عنيفاً وهو يتغنى :-

هذى يدى لسماء المجد ارفعها
رمزاً يشير الى المستقبل الحسن
لما نرجيه تحت الشمس من وطر
وما نفديه بالأرواح من وطن
دقوا البشائر للدنيا بأجمعها
وللعروبة من شام الى يمن
انا هممنا وارهفنا عزائمنا
على النهوض بشعب للعلا قمن
الله اكبر هذا الروح اعرفه
اذا تذكرت أيامى وبعرفنى
كنا ننميه سراً فى جوانحنا
حتى استحال الى الاجهار والعلن

وفى ذلك الاجتماع التاريخي تم اجازة دستور المؤتمر بعد مداولة جادة موضوعية ، وتم أيضاً انتخاب هيئة عامة للمؤتمر من ستين عضواً تختار من بين اعضائها لجنة تنفيذية من خمسة عشر عضواً،بينهم سكرتير المؤتمر، ومساعده وامين صندوقه،ومحاسبه .. وتقرر ايضاً أن يتعاقب الاعضاء الآخرون والسكرتير معهم على رئاسة اللجنة التنفيذية شهراً بعد شهر ، وبهذا تختفى اسباب الصراع والانقسام والمنافسة .

وكان الدستور الذى اجازه الاجتماع التأسيسى قد جعل الغرض من المؤتمر " خدمة المصلحة العامة للبلاد والخريجين " وهو بهذه العبارة المقتضبة المشبعة بأعظم المعانى والاهداف قد قفل المنافذ أمام أى اعتراض،أو مبرر للاعتراض،قد يصدر عن الحكومة ، وفتح أمام المؤتمر ابواباً واسعة لتصريف كل عمل عام تكون فيه مصلحة للبلاد أو للخريجين ، كان ذلك فى مجال التعليم،أو الاقتصاد، أو الاجتماع أو السياسة،أو كان يتعلق بمصالح أعضاء المؤتمر وحقوقهم .

الفصل السادس

التعليم الأهلي

كانت الفترة الأولى من حياة المؤتمر فيما يصف الاستاذ أحمد خير فترة اعداد وتنظيم ، وهي الفترة التي تولى قيادته فيها كبار الخريجين رغم ما كان بينهم من تنافر وضعف ولكن مكانتهم في المجتمع كانت ساخنة ، تلي مكانة الزعماء الدينيين مباشرة ، وكانوا موضع ثقة الحاكمين مما خلع عليهم نفوذا كبير بين الأهلين ، وقد حمد لهم الاستاذ أحمد خير التقليد الحسن الذي اختطوه بجعل رئاسة المؤتمر دورية يتولاها كل شهر احد اعضاء لجنته التنفيذية مما نأى بالمجتمع السوداني من الوضع السيء الذي يجعل الرئاسة وقفا على فرد يصعب انتزاعها منه دون احداث هزة تطيح بالوحدة والتعاون • وقد كان المؤتمر عند مولده يحتاج لمثل هذا الاستقرار ، ولما يجنبه اسباب الانقسام • واليهم ايضا يرجع الفضل في اصدار لوائح المؤتمر • ويحدثنا الاستاذ أحمد ايضا انهم اقدموا بعد هذا على الاتصال بالحكومة مقدمين لها دستور المؤتمر ولوائحه ، شارحين اهدافه وغايته في رسالة يؤخذ عليها التفصيل كما يؤخذ عليها وضعها بالانجليزية واغراقها في دبلوماسية زاخرة بالالفاظ الرخوة •

وقد اتاحت هذه الرسالة الفرصة للسكرتير الاداري ليعد باعتراف الحكومة،ليصبح المؤتمر هيئة شبه عامة متى التزم بالحدود التي رسمها ذلك الخطاب •

وكان مما فعلته اللجنة الأولى للمؤتمر أن ادخلت تقليد " لجان الاختصاص " وهي كاللجان البرلمانية تقوم بتحضير المواضيع العامة

ودرسها توطئة لعرضها على الهيئة العامة.كما انشأوا صحيفة نصف شهرية ولكنها كانت قليلة الأثر .

يقول الاستاذ أحمد خير في كتابه،كفاح جيل،ان المؤتمر تقدم الى الحكومة ببضع مذكرات على فترات متباعدة ، الأولى لاصلاح التعليم في البلاد، والثانية لاصلاح شؤون المعهد العلمي بأم درمان . وقد قوبلتا في الدوائر الرسمية بالترحاب والاستحسان .ثم تقدموا بمذكرة ثالثة يطالبون فيها بتحسين اجازات الموظفين ولكن الحكومة اعترضت عليها واعتبرتها تدخلا غير مشروع في العلاقة بينها وبين موظفيها .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر من عام ١٩٣٩ اعلن المؤتمر سياسة التأييد للديمقراطيات ، وكان هذا الموقف منه يعكس رغبة الأكثرية من المؤتمرين وتقديرهم الرزين . وقد قرت الحكومة عيناً بهذا الموقف واطمأنت له .

أما في مجال الاصلاح الاجتماعي فقد حاولت لجنة المؤتمر أن تطرق أبواباً كثيرة،وحاولت في مجال الاقتصاد أن تؤسس شركة تجارية لكنها لم توفق في هذا المجال .

وكان الاستاذ أحمد خير قد استقال من خدمة الحكومة في اعقاب عام ١٩٣٩ والتحق بمدرسة الحقوق التي انشئت حينئذ كأحدى المدارس العليا التي قررت الادارة انشاءها نواة للكلية الجامعية فجامعة الخرطوم بعدها .. وكان من زملائه في هذه المدرسة بعض الشبان الذين قدر لهم أن يلعبوا أدواراً بارزة في تاريخ السودان السياسي والقضائي ، منهم السيد بابكر عوض الله أول رئيس لمجلس النواب الذي تم عنده اعلان استقلال السودان في أول يناير من عام ١٩٥٦،والذي اصبح فيما بعد رئيسا للقضاء .. والسيد مبارك زروق ، نائب رئيس الحزب الوطني الاتحادي، وأول وزير سوداني لوزارة المواصلات فوزارة الخارجية والمالية بعدها ، والسيد الريح الأمين ، رئيس القضاء الاسبق ، والسيد زيادة

أرباب ، وزير المعارف والعدل ، والسيد عثمان الطيب،رئيس القضاء أيضاً ، والسيد عبد المجيد امام،نائب رئيس القضاء والسادة مبارك المدنى ، وحسن عبد الرحيم من كبار القضاة فى السودان .

وقد اقبل الاستاذ أحمد خير على الدراسة رغم كبر سنه بالمقارنة لزملائه الذين انتقلوا مباشرة من الدراسة الثانوية الى الدراسة العليا ، فى اهتمام عظيم .. واختاره زملاؤه الطلبة رئيساً لأول لاتحاد لهم ، واستطاع أن يعقد صداقات وعلاقات ود واحترام مع اساتذته فى الشريعة كالشيخ محمد محى الدين ـ عبد الحميد من كبار علماء الازهر ، الذى اشتهر بغزارة العطاء وكثرة ما ألف من كتب تعتبر اليوم من امهات المراجع فى الشريعة الاسلامية ، واللغة العربية .. واستطاع أيضاً أن ينتزع تقدير استاذه فى القانون الانجليزى المستر هيز الذى التحق قاضياً .فيما بعد بالهيئه القضائية فى السودان .

وعلى الرغم مما كان يفرضه عليه الطلب من اقبال على الدرس،فقد ظل يمارس نشاطه فى مؤتمر الخريجين العام ، يحضر اجتماعات هيئته العامة التى كان عضواً فيها ويشترك فى مداولاتها ، ويقدم لها المقترحات والاعمال ويضغط على اللجنة التنفيذية فى عنف لتضاعف من الجهد فى خدمة المجتمع،ولترفع راية المؤتمر عالية خفاقة ، وتستنفر المواطنين للالتفاف حولها.

وكان المؤتمر فيما ذكرنا قد حدد موقفه من الحرب العالمية الثانية باختياره الانحياز لنصرة الديمقراطيات،اذ كان بين قادته فريق كبير يرى أن يكون للسودان وأهله دور ملحوظ فى الذود عن حياض الوطن،وأنه من الخطأ ترك البلاد يتنازعها الطامعون فيها من الغزاة بوقوف أهلها من الاحداث موقف المتفرجين .. وكان من رأى المؤتمر أيضاً أن تشترك قوة دفاع السودان فى الحرب اذا اقتضى الدفاع عن السودان منها ذلك .

وفى مستهل عام ١٩٤٠ تقدم الاستاذ أحمد خير،وهو لم يزل طالباً فى السنة الأولى من مدرسة الحقوق،بمذكرة يقترح على المؤتمر فيها أن يتبنى مشروع التعليم الأهلى ، ويخصص له يوماً كل عام تجمع فيه التبرعات من المواطنين وتقام الاسواق الخيرية لجمع المال اللازم لانشاء المدارس .

يقول الاستاذ فى كتابه كفاح جيل :ـ

" من أجل الحفاظ على كيان المؤتمر بربطه بجماهير الشعب دون أن يصطدم بالجهات الرسمية ، نبتت فكرة يوم التعليم . وقد قدم المشروع للجهة التنفيذية وهو يرمى لاقامة مهرجان فى عيد الهجرة من كل عام يطلب فيه من المواطنين أن يدفعوا ضريبة مالية لخدمة أغراض وطنية . ولما نظرت اللجنة التنفيذية فى الاقتراح رأت بعد اجتماع وجدل طويل أن الأمر يحتاج الى مزيد من البحث والدراسة . وكانت تلك لحظة قاسية ، نشب فيها خلاف حاد بين أنصار المشروع ورجال اللجنة ."

هذا ما كتبه صاحبنا فى كتابه .. ولكن كيف يتسنى للجنة التنفيذية أن تبلغ ما تريد وصاحبنا يقف لها بالمرصاد ، ويضاعف من الضغط عليها ويشدد الخناق ، حتى يتحقق ما يريد ؟

يقول :

" لم يمض اسبوع واحد حتى حزمت اللجنة أمرها وشرعت فى تنفيذ المشروع بهمة واخلاص . وزاد من الحماس أن اسهم الزعماء الدينيون بمبالغ كبيرة كانت حافزاً لسخاء الطبقة التى توجس خيفة من اتجاهات المؤتمر ، ولم يمتنع عن المساهمة ـ فى طول البلاد وعرضها ـ الا أفراد الجالية الانجليزية بالاجماع كأنما هبطت عليهم تعليمات وأوامر .

" امتدت اعمال يوم التعليم وتلاحقت فى طول البلاد وعرضها

فأقيمت الأسواق الخيرية فى الجهات المختلفة ، ورأت اللجنة التنفيذية وقد فاقت المبالغ المتحصلة تقدير جميع المتفائلين ، ان الأمر يستوجب وضع لائحة خاصة لتنظيم جميع المسائل المتعلقة بيوم التعليم من ايرادات ومصروفات .. وهكذا وجد القائمون بأمر المؤتمر فى يوم التعليم ضالتهم المنشودة لحشد المواطنين حوله فكسبوا بهذا نفوذاً عظيماً . "

ولم يقتصر نشاط المؤتمر على الحقل الاجتماعى والحقل التعليمى بل امتد أيضاً الى الحقل الرياضى اذ أقام مهرجانا رياضيا،أول الأمر فى أم درمان،اشتركت فيه الاندية الرياضية المحلية،وافتتح يوم السودان الرياضى على طريقة الالعاب الاولمبية ، واهتم بالمهرجان الأدبى الذى دعت له الجمعية الادبية بواد مدنى بايعاز من الاستاذ أحمد خير ليصبح عيداً وطنياً يحتفل به فى اليوم الثانى لعيد الفطر من كل عام ، وتنتقل شعلته من مدينه الى أخرى ، وكانت تقدم فيه بحوث قيمة فى كافة أوجه الحياة السودانية .

يحدثنا الاستاذ أحمد خير عن فكرة المهرجان الادبى فيقول :-

" لم تكن فكرة المهرجان ثمرة حلم جميل أو وحى خيال عارض ، ولكنها خلاصة تأملات اعضاء مدرسة واد مدنى ، سواء فى اجتماعاتهم الرسمية أو فى جلسات السمر ، وهى على الارجح وليدة الرغبة فى اشتراك أكبر عدد من حملة الاقلام فى السودان فى نتاج الجمعية الادبية ، فكما أصبح المؤتمر وقفة جامعة للوطنية السودانية ، فليصبح المهرجان وقفة جامعة للأدب والفنون،فالوطنية والأدب - متلازمان .. وكان يداعب خيال رجال الجمعية الأمل فى مساهمة ادباء مصر لا سيما بعد أن اتصلوا بالاستاذ توفيق الحكيم وأهداهم مجموعة من مؤلفاته .. كل هذا هدى اعضاء الجمعية الى اخراج فكرة المهرجان الادبى ليكون معرضاً للانتاج العلمى والادبى والتاريخى ، وللانتاج الفنى من نحت

وتصوير . وتقرر أن يعقد المهرجان فى اليوم الثانى لعيد الفطـــر .
وكان الرأى العام عند حسن ظن الجمعية فاشترك فى المهرجان جمـــع
غفير من حملة الاقلام ورجال الفن حتى لم يتسع المقام لعوض البحـوث
كلها .. وشهدت المدينة فى نوفمبر ١٩٣٩ عيداً قومياً رائعاً زاد مـن
بهجة العيد الدينى ومسراته ، وازدحمت بوفود الادباء المشتركـــة ،
والاعيان الزائرين من الشيوخ والشباب .

" وقد اصبح المهرجان الأدبى عيداً وطنياً ، وصارت شعلته مثـــل
شعلة الاولمبياد عند قدماء اليونان،تنتقل من اقليم الى آخر ، سلمهـا
نادى واد مدنى لنادى خريجى مدارس السودان بأم درمان ومن أم درمـــان
تسلمها نادى الخريجين بالخرطوم ، ومنه انتقلت الى نادى الخريجـين
بالأبيض . "

وكان يشترك فى هذا النشاط الدافق من اعضاء الجمعية الادبيـــة
بواد مدنى مع الاستاذ السادة دكتور ابراهيم انيس رئيس النــــادى ،
واسماعيل العتبانى سكرتيره ، والسادة حسن وابراهيم عثمان اسحـق ،
وحسن نجيلة ، وأحمد مختار وغيرهم ممن كانت تربط بينهم اواصـــر
الصداقة والوفاء .

ونرجع الى مشروع التعليم الأهلى فنقدم الصورة التالية التى اختطهـا
الاستاذ امين التوم فى كتابه " ذكريات ومواقف فى طريق الحركـــــة
الوطنية السودانية " يصف لنا فيها حماسة الأهلين للمؤتمر بسبـــب
نشاطه فى نشر التعليم .

يقول :ـ

" فى يوم من الأيام قرر المؤتمر أن يفتتح أول مدرسة له على النيـل
الأبيض فى قرية الكنوز .. كان ذلك فى عام ١٩٤٢ وبعد تقديم المؤتمر
مذكرته المشهورة ، فاجتمعنا وكنا نفراً من الخريجين .. كنا نحـــواً

من ثلاثين شاباً .. وكان على قيادة هذا النفر الأخ أحمد خير الــــذى اقترح قيام المؤتمر .. وكانت مهمة هذا الوفد أن يفتتح مدرسة الكنوز باسم المؤتمر .. فأعدت العربات لنا ، وبدأنا أول ما بدأنا من نادى الخريجين (بأم درمان) بانشاد نشيد المؤتمر ، وكانت تلك أول مـرة ينشد نشيد المؤتمر فيها بشكل جماعى وبتلك القوة التى انشد بها .

" وكان أول مكان نقف عنده مدينة القطينة ، وكانت دهشتنـــــا عظيمة عندما رأينا المدينة بأجمعها .. رجالاً ونساء واطفالا.. تخـرج لتستقبلنا .. وقبل أن ننزل من العربات انشدنا نشيد المؤتمر، وكانت دهشتنا اعظم عندما رأينا الناس يبكون بدموع غزيرة حرى وهم يستمعون الى نشيدنا .. وقد اكرمتنا مدينة القطينه اكراماً منقطع النظير. وفى المساء بارحناها فى طريقنا الى الكنوز التى وصلناها فى الصباح الباكر. وهناك كان سكان تلك المنطقة فى استقبالنا عند المدرسة .. وافتتحنا المدرسة وقلنا فيها ما شاء لنا ضميرنا أن نقول .. تحدثنا عـــــن السودان وعن الاستقلال وعن الحرية وعن خروج المستعمرين .. لم نـترك شيئاً يمكن أن يقال فى أى بلد ينشد الحرية الآ قلناه فى تلك الليلـة واخذ الاقليم كله يردد ما قلنا،وما انشدنا لفترة طويلة .. وفى طريـق عودتنا وقفنا فى الكوة ولقينا جموعاً من أهلها ، والقيت الخطـــب والأناشيد الحماسية .

" لم تكن رحلة الكنوز اذن رحلة لافتتاح مدرسة فحسب ولكنهـــــا كانت فى الواقع رحلة سياسية وطنية جادة يقوم بها مؤتمر الخريجـين فى منطقة هامة من أرض السودان .. وكانت رحلة ناجحة جداً .. فقـــد ايقظت المواطنين ووضعت اسم المؤتمر فى كل لسان . ولما عدنا الـى الخرطوم وصلت الأخبار عن هذه الرحلة الى الخريجين وكان وقعهـــا عظيماً فى انفسهم . "

وعنى المؤتمر فيما عنى به بأمر القرية ، ومد يده للنهوض بهـــا

وعمل على محاربة العادات البالية الضارة .

واخيراً فلعل شباب الجيل الجديد فى بلادنا وهو يرتاد دورالسينما الوطنية فى العاصمة المثلثه لا يعرف أن فكرة انشاء شركتها انبعثت ايضا من مؤتمر الخريجين العام فى مجال نشاطه فى الحقل الاقتصادى ، اذ عبأ مشاعر المواطنين من كبار التجار، وفى مقدمتهم المحسن الكبير الحاج عبد المنعم محمد، رجل البر والاحسان الشهير، لانشائها وبالتالى تمليك هذا العمل لأهل السودان بعد أن كان يؤثر به الاجانب تحت الادارة البريطانية . ولم يكتف المؤتمر بهذا بل حرض الاقاليم لانشاء شركات مماثلة لعمل دور للسينما فيها بالتعاون مع الشركة التى قامت فى الخرطوم فكانت استجابتها رائعه .

هذه بعض نشاطات المؤتمر رأينا أن نمسها برفق ونحن نسرد سيرة الاستاذ أحمد خير عرفاناً منا له بالجميل، وتنويراً لناشئتنا من ابناء الاجيال الجديدة ، وحفزاً لهم للتبارى فى ميادين الخدمة العامة مما ينهض بالسودان ويقرن اسماءهم بنهضته . وفى الفصل المقبل نقدم طرفاً من نشاط المؤتمر فى الحقل السياسى ونقص قصة مذكرته الشهيرة التى طالب فيها لأهل السودان بحق تقرير المصير ، ونقدم ايضا شيئا من نشاطه عند بدء المفاوضات الانجليزية المصرية لتعديل معاهدة ١٩٣٦ .

الفصل السابع

مذكرة المؤتمر

نتناول فى هذا الفصل قصة المذكرة الشهيرة التى رفعها المؤتمر لحاكم السودان العام لينقلها بدوره الى دولتى الحكم الثنائى ، خلفيتها ، ومحتواها ، ومراميها والدور الذى لعبه الاستاذ أحمد خير فى اعدادها ودفاعه عنها .

كان السودان فيما ذكرنا فى فصل سابق قد وقف مع الحلفاء فى حربهم ضد المحور وقفة صلبه صادقة ، وبذل فى سبيل نصرتهم بسخاء ، وقدم تضحيات عظيمة ، بل وسخر اقتصاده وامكانياته كلها لخدمة المجهود الحربى ، وجند رجاله لخوض الحرب مع جنودهم ، وأقام قوة الطوارىء والقوات التطوعية لدرء الخطر وتخفيف العبء عن الجنود ، وشهد لقوة دفاع السودان التى قفز عدد رجالها من آلاف قليلة الى ما يزيد من ثلاثين الفاً ، شهد لها السكرتير الادارى لحكومة السودان سير دوقلاس نيوبولد فى خطاب دورى بعث به لمديرى المديريات فى الخامس من مايو ١٩٤١ قال فيه انها انتزعت ثناء عاطراً طيلة حملة شرق افريقيا ، ووقفت جنباً الى جنب مع الوحدات البريطانية تقاتل معها ، واحتمل رجالها الغارات الجوية ، وخاضوا نيران المدافع ، وثبتوا أمام هجمات الدبابات ، واظهروا بسالة فائقة وقدرة عظيمة على الحركة ، تسلقوا الجبال ، وقادوا العربات المصفحة فى ظروف قاسية ، واحتملوا الحر والبرد والمطر والبعد عن الأهل والديار .

ولم يكن نشاط قوة دفاع السودان قاصراً على اريتريا واثيوبيا بل

امتد الى شمال افريقيا ، الى ليبيا، حيث وقف السودان بصدق مع الحلفاء ، وكان ينتظر أن ترد له بريطانيا الجميل وتعترف له بحقه فى الحرية ٠

وكان المتعلمون من ابنائه يتابعون انباء جنودهم فى اعجاب وتقدير ، ويستمعون فى نشوة وطرب الى المبادىء الرفيعة التى أعلى لواءها ميثاق الاطلنطى ، وبشر بها وفى مقدمتها حق الشعوب المقهورة فى تقرير مصيرها ٠٠ وكانت الصحافة المحلية تنشر انباء ذلك الميثاق وتعلق عليه وتستنهض المؤتمر للتعلق به ٠

وكان الميثاق قد أصدره مستر فرانكلين روزفلت ، رئيس الولايات الامريكية المتحدة ، ومستر ونستون تشرشل ، رئيس وزراء بريطانيا فى الرابع عشر من اغسطس عام ١٩٤١ فى ثمانى نقاط يعربان فيه عن املهما فى بلوغ البشرية مستقبلاً أفضل لها بعد الحرب العالمية الثانية ٠ وكان الميثاق يؤكد فيما يؤكد حق الشعوب فى تقرير مصيرها ويلتزم باحترام حق الدول فى اختيار نظام الحكم الذى يلائمها وبتأييد الحكم الذاتى للدول التى حرمت منه عن طريق القهر ٠

وكان للجنة المؤتمر رأى فى ارسال وحدات من قوة دفاع السودان الى ليبيا كشفت عنه فى خطاب بعثت به لحاكم السودان العام طلبت فيه استشارة الرأى السودانى العام أو على الأقل ابلاغه ، قبل ارسال اولئك الجنود ٠ ورأت اللجنة بعد هذا أن تتقدم للحاكم العام بمذكرة تضمنها الأمانى الوطنية للشعب السودانى مما كان له اعظم الأثر فى استنهاض الهمم ، وتوحيد الصف لاسترداد الحق السليب ٠٠ فعلت ذلك فى الثالث من ابريل ١٩٤٢ ٠

وكانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر قد عهدت بصياغة المذكرة الى ثلاثة من اعضائها هم السيد اسماعيل الازهرى ، والاستاذ أحمد خير والدكتور عبد الحليم محمد ٠٠ ونستمع الى الاستاذ أحمد يحدثنا عن

اعداد هذه المذكرة .

يقول :ـ

" صيغت بنود المذكرة بعد استعراض قوانين حكومة السودان واستقراء امهات المسائل فى البلاد .. وكانت الغاية من حركة المؤتمر اثارة روح الكفاح والنضال عند الجمهور السودانى بتحديد مطالب شعبية منتزعة من صميم واقع الحياة التى يحياها رجل الشارع،وتقديمها له فى تركيز وايجاز يستطيع أن يصيغ منها شعاراته ، اذن فقد كان الهدف الرئيسى من وضع المذكرة ورفعها الى حكومة السودان هو خلق قضية وطنية سودانية واضحة المعالم والحدود ، وتوجيه القائمين على قيادة الرأى العام توجيهاً سديداً .. ليس ذلك فحسب،بل أن المذكرة خلقت لدى الجمهور السودانى احساساً جازماً بأن المؤتمر ، هو الهيئة التى كان يتطلع اليها ، فأخذ يلتف حولها ،فقفزت بذلك لجانه الفرعية من احدى عشرة لجنة الى ست واربعين فى طول البلاد وعرضها وعضويته من الف واربعمائه الى خمسة آلاف وثلثمائة . "

ونلاحظ أول ما نلاحظ على تلك المذكرة انها تحدثت فى وضوح لا لبس فيه ولا غموض باسم الشعب السودانى ، قالت :ـ

" يتشرف مؤتمر الخريجين العام بأن يرفع لمعاليكم ، بصفتكم ممثلين لحكومتى صاحب الجلالة الملك جورج السادس ، ملك بريطانيا العظمى ، والملك فاروق الأول ، ملك مصر ، المذكرة التالية التى تعبر عن مطالب الشعب السودانى فى الوقت الحاضر . "

وتمضى المذكرة فتتحدث عن التطور العالمى ، وأحداث الحرب ، وما بعثه ذلك فى نفوس الشعب من ميل قوى لتحقيق العدل الأنسانى ، حرية الشعوب، وحق ما اوضحت عنه بيانات السياسة البريطانية ومواثيق جال الديمقراطية العالميين .

ومرة أخرى يتحدث المؤتمر باسم الشعب السودانى فيقول :-

" انه كشعب من الشعوب التى تضافرت مع الامبراطورية البريطانية فى هذه الحرب منذ نشوبها، قد ادرك ادراكاً صحيحاً حقوقه كشعب ينشد الحياة بعد ما يقرب من نصف قرن قضاه فى أحضان حكم منظم . ومؤتمر الخريجين العام الذى يمثل الرأى العام المستنير ، وهو ثمرة ناضجة من ثمرات الحكم الثنائى ، يشعر بعظم مسئوليته ازاء بلاده ومواطنيه جميعاً ، ولهذا يتقدم بهذه المذكرة راجياً أن تجد التقدير الذى تستحقه ، والترحيب الذى يطمع فيه ، وهو بعد واثق من أنها تعبر تعبيراً صادقاً عن ميول وأمانى هذه البلاد . "

هذا ما جاء فى مقدمة المذكرة التى خلع فيها المؤتمر على نفسه حق الحديث باسم الشعب السودانى فى مخاطبة الحكومة ، والاعراب عن امانيه الوطنية مما كانت الحكومة قد أنكرته انكاراً تاماً،بل جعلت اعترافها بالمؤتمر نفسه رهيناً بألا يتحدث الآ باسم اعضائه من الخريجين وحدهم دون سواهم .

واشتملت المذكرة على اثنى عشر مطلباً على رأسها المطلب الخاص بمنح السودان ، بحدوده الجغرافية ، حق تقرير مصيره بعد الحرب مباشرة ، واحاطة ذلك الحق بضمانات تكفل حرية التعبير عن ذلك الحق فى حرية تامة ، كما تكفل للسودانيين الحق فى تكييف الحقوق الطبيعية مع مصر باتفاق خاص بين الشعبين المصرى والسودانى .

وتمضى المذكرة فتطالب فى بندها الثانى بتأسيس هيئه تمثيلية من السودانيين لاقرار الميزانية والقوانين ، وهى بهذا تنادى باشراك المواطنين اشراكاً فعلياً فى ادارة شؤون بلادهم وتصريفها ، وتنادى للشعب السودانى بحق انتخاب الهيئه المنشودة .

وتنادى المذكرة فى بندها الثالث بتأسيس مجلس أعلى للتعليم

أغلبيته من السودانيين ، وتخصيص ما لا يقل عن اثنى عشر فى المائة من الميزانية للتعليم • ويرى المؤتمر فى قيام مثل هذا المجلس الأعلى ، بالصورة التى حددها ، ضماناً لتوسيع التعليم والسمو بنوعيته ، ويرى فى تحديد نسبة اثنى عشر فى المائة من الميزانية للتعليم ما يضمن توفر المال اللازم لخدمة المصلحة الوطنيه وبلوغ الهدف •

وتنادى المذكرة فى البند الرابع منها بفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية • وقد كانت السلطات التنفيذية فى السودان ، ممثلة فى اشخاص مديرى المديريات ومفتشى المراكز ومن اليهم تتمتع بسلطات قضائيه تمارسها جنباً الى جنب مع سلطتها التنفيذية مما يتعارض ومبدأ فصل السلطات •

وكان البند الخامس من المذكرة ينادى بالغاء قوانين المناطق المقفولة ، ورفع القيود عن الاتجار والانتقال عن السودانيين داخل بلادهم • والمناطق المقفوله المشار اليها فى هذا البند هى المديريات الجنوبية والمناطق الأخرى التى يقطنها السودانيون ذوو الأصول الزنجيه، فى جنوب الفونج ، وكردفان ودارفور •وكان القانون يقضى بقفلها فى أوجه السودانيين الشماليين فترة امتدت عند رفع المذكرة للحاكم العام لعشرين سنة •

والبند السادس من المذكرة ينادى بوضع تشريع بتحديد الجنسية السودانية، والمؤتمر بهذا المطلب منه يحدد مكان السيادة فى السودان وينادى بمنحها لأهلها ، ولم تكن حكومة السودان حينذاك تعترف بالسودانية جنساً للسودانيين ، ولم يكن فى البلاد قانون يحدد تلك الجنسية •

والبند السابع يطالب بوقف الهجرة الى السودان فيما عدا ما قررته المعاهدة الانجليزية المصرية لعام ١٩٣٦ ، والتى اذنت بهجرة

المصريين على أن تستوفى مقتضيات الصحة ولا تتعارض مع النظام العام ، والهجرة التى طالب المؤتمر بوقفها هى هجرة الأفارقة من غرب افريقيا .

والبند الثامن فى المذكرة ينادى بعدم تجديد عقد شركة السودان الزراعية فى مشروع الجزيرة . وكان هذا العقد مقرراً له أن ينتهى فى عام ١٩٥٠ . وكانت هذه الشركة مسئولة ، منذ قيام المشروع ،عن ادارته ، وعن حلج القطن وتسويقه ، وكانت تحصل مقابل هذا العمل على عشرين فى المائة من عائد القطن الذى ينتجه المشروع .

والبند التاسع ينادى باعطاء السودانيين فرصة الاشتراك الفعلى فى الحكم بتعيينهم فى الوظائف ذات المسئولية السياسية فى جميع فروع الحكومة الرئيسيه ، وقصرها على السودانيين على أن تملأ الوظائف التى تدعو الضرورة لملئها بغيرهم بعقود محدودة الأجل ، يتدرب خلالها السودانيون لملئها فى نهاية فترة تلك العقود وذلك تطبيقاً لمبدأ الرفاهية والأولوية فى الوظائف الذى جعلته معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر هدفاً لها .

والبند العاشر ينادى بتمكين السودانيين من استغلال موارد البلاد التجارية والزراعية والصناعية .

والبند الحادى عشر يطالب بالزام الشركات والبيوتات التجارية الاجنبية بتخصيص نسبة معقولة من وظائفها للسودانيين . أما البند الثانى عشر والأخير فيطالب بوقف الاعانات لمدارس الارساليات وتوحيد برامج التعليم فى الشمال والجنوب . وكانت حكومة السودان حتى وقت تقديم المذكرة لها ، وبعده بسنوات عدة ،تعهد بمسئولية التعليم فى الجنوب للجمعيات التبشيرية المسيحية ،وتمنحها اعانات سنوية مساعدة لها فى النهوض بهذا العمل . وكانت مناهج التعليم فى الجنوب تختلف عنها فى الشمال ، بل وكانت بعض الكتب التى تعدها الكنائس تثير حفيظة أهل الجنوب على أهل الشمال وتباعد بينهما .

هذه هى النقاط والمطالب التى اشتملت عليها المذكرة الشهيرة التى ردتها الحكومة له فى التاسع والعشرين من ابريل ١٩٤٢ مع خطاب من السكرتير الادارى ، سير دوقلاس نيوبولد يقول فيه "انه ليس فى استطاعة الحاكم العام قبول تلك المذكرة ، وهى لهذا مردودة لكم " ثم يمضى فينكر على المؤتمر حقه فى التحدث باسم شعب السودان ، ويهدد بسحب الحكومة لاعترافها منه ، ويتوعده ويتهدده ، ولكن هذا الوعيد منه لا يزيد الخريجين الاّ تمسكاً بمطالب مؤتمرهم ، ويستمر تبادل المذكرات بين الفريقين . بل ويتم لقاء بين السكرتير الادارى وبعض قادة المؤتمر لتلطيف الجو ، واسترداد الثقة بينهما ولكن دون جدوى . ويتعرض ذلك الموقف من حكومة السودان الى نقد من بعض كبار البريطانيين والمؤرخين .

يقول المؤرخ البريطاني مستر هولت استاذ التاريخ بجامعة لندن ، والذى كان قد عمل لبعض الوقت فى جامعة الخرطوم ، يقول فى كتابه " تاريخ السودان الحديث " :

" لئن جاز لنيوبولد ان يرد على هذه المذكرة رداً حازماً ، فكيف يسوغ لنفسه أن يبلغ بذلك الرد منه أقصى درجات الفظاظة؟ وعلى الرغم من أنه حاول أن يخفف من لهجته فى محادثاته الخاصة مع بعض قادة المؤتمر، فان رده كان يعكس السياسة الرسمية لحكومة السودان مما أدى الى أزمة ثقة حادة . ليس ذلك وحده ، بل كان من النتائج الوخيمة لذلك الموقف انقسام المؤتمر نفسه ، فبينما كان فريق من اعضائه على استعداد لتقبل وعود الحكومة ، والثقة فى نواياها ، كان الفريق الآخر ، بقيادة الأزهرى - قد كفر بدوافع البريطانيين فى السودان ، واتجه - كما فعل على عبد اللطيف قبله - الى مصر للتحالف معها . وهكذا عادت وحدة وادى النيل من جديد شعاراً تلتف حوله بعض العناصر الوطنية السودانية ، وكان نفوذ الازهرى بين المتعلمين من الشباب وعند أهل المدن والمتطرفين عظيماً ، واستطاع انصاره ان

يسيطروا على المؤتمر ٠ "

ويقص علينا الاستاذ أحمد خير أنه كان هناك فريق فى اللجنة التنفيذية ، يؤيده فريق محدود فى الهيئه العامة ـ ولعله كان زعيمهم ـ ينوى أن يندفع ضد حكومة السودان الى نهاية المطاف ليضطرها لاتخاذ اجراء تعسفى ضد المؤتمر بحله واعلانه هيئه غير قانونية،أو ضد اعضائه بتحريم الاشتغال بالسياسة عليهم ولكن هذا الاتجاه لم يجد قبول الأكثرية ٠

ويمضى الاستاذ أحمد خير فيقول :ـ

لم تقف حكومة السودان جامدة ازاء الهجوم الذى قامت به الجبهة الشعبية بل عملت على صده بأسلوب عملى فأصدرت فى سبتمبر من عام ١٩٤٣ قانوناً بانشاء المجلس الاستشارى لشمال السودان استهدفت به أن يصيب عصفورين بحجر ٠٠ فمن شأنه أولاً أن يرضى العناصر المتطلعة الى التعاون معها ، ويمكنها من تلمس الأسباب المقنعه لذلك التعاون ، كما من شأنه من جهة اخرى أن يركز سياستها ويقيمها على دعائم من رضا الشعب ومساهمته فى ظاهر الأمر ٠ وثمة هدف ثالث ربما كان ماثلاً فى اذهان القائمين على شؤون الحكم والسياسة فى السودان ، ذلك أن فى صفوف الخريجين وفى دوائر المؤتمر وعياً قومياً لابد من اتخاذ الأهبة ضده ، وقطع الطريق عليه بانشاء هيئة يكون لها دون غيرها حق التعبير عن السودانيين والفصل فى مصير البلاد ٠

"وهبت الصحافة عن بكرة ابيها تناهض مشروع المجلس الاستشارى ٠ وقد ساهم فى المعارضة كبار الخريجين من صفوف المعتدلين فوجهوا له سهام النقد والتجريح ٠ وكان اثبات سوء النية سهلاً ميسوراً لان المشروع جاء قاصراً على شمال السودان ٠

" اشتدت المعارضة للمجلس الاستشارى اشتداداً اضطر السكرتير الادارى وقتئذ ، سير دوقلاس نيوبولد ، أن يتولى بنفسه اعباء الدفاع ، فألقى من الاذاعة خطاباً طويلاً لم يحول الرأى العام قيد أنملة عما سبق وأجمع عليه ، بل زاد نار المعارضة اشتعالاً .

"وكان هذا الاجماع خليقاً بأن يجد اصداءه فى صفوف المؤتمر ، فتقدم بمذكرة عددت حيثيات المعارضة وحججها ولما لم يبد على الحكومة ما يفيد تراجعها عن عزمها توج المؤتمر روح المعارضة بقرار لا ريب فى خطورته ، اذ اعلن مقاطعته للمجلس الاستشارى واعتبار كل من يتقدم لعضويته خارجاً على المؤتمر ومنفصلاً عنه .

" لقد كان القرار حاسماً وضربة قاصمة للمجلس أضعف من هيبته ومكانته فى النفوس ، وزاد من قوته واثره أن نفذه بعض من وضعتهم الظروف موضع الامتحان من كبار الخريجين اذ اعتذروا عن قبول عضوية عينهم فيها الحاكم العام لأنهم ملزمون بقرار المؤتمر . وكان لهذا القرار ان جرد المجلس من مظاهر التمثيل التى كانت ترجوها الحكومة مما اضطرها الى ترقيته درجة أخرى قبل أن يبلغ أشده . "

وأخيراً فاننا نثبت هنا نص المذكرة التى اشترك الاستاذ أحمد خير فى اعدادها والتى كانت نقطة تحول فى السياسة السودانية وتاريخ مؤتمر الخريجين العام نسبة لأهميتها من ناحية ولتمكين الناشئة من ابناء الاجيال الحديثه من الاطلاع عليها :-

حضرة صاحب المعالى حاكم السودان العام :

بواسطة سعادة السكرتير الادارى لحكومة السودان ،

يا صاحب المعالى :

يتشرف مؤتمر الخريجين العام بأن يرفع لمعاليكم بصفتكم ممثلين لحكومتى صاحبى الجلالة الملك جورج السادس ملك بريطانيا العظمى

والملك فاروق الاول ملك مصر المذكرة التالية التى تعبر عن مطلب الشعب السودانى فى الوقت الحاضر .

ان التطور العالمى واحداث الحرب الحالية قد بعثت فى الشعوب ميلاً قوياً لتحقيق العدل الانسانى وحرية الشعوب كما أفصحت بذلك تصريحات الساسة البريطانيين ومواثيق رجال الديموقراطية العالميين .

والسودان كشعب من الشعوب التى تضافرت مع الامبراطورية البريطانية فى هذه الحرب منذ نشوبها قد أدرك ادراكا صحيحاً حقوقه كشعب ينشد الحياة بعد ما يقرب من نصف قرن قضاه فى أحضان حكم منظم . ومؤتمر الخريجين العام الذى يمثل الرأى العام المستنير وهو ثمرة ناضجة من ثمرات الحكم الثنائى يشعر بعظم مسئوليته ازاء بلاده ومواطنيه جميعاً .

ولهذا يتقدم بهذه المذكرة راجياً أن تجد التقدير الذى تستحقه والترحيب الذى يطمع فيه وهو بعد واثق من أنها تعبر تعبيراً صادقاً عن ميول وأمانى هذه البلاد .

١ - اصدار تصريح مشترك فى أقرب فرصة ممكنة من الحكومتين الانجليزية والمصرية بمنح السودان بحدوده الجغرافية حق تقرير مصيره بعد الحرب مباشرة واحاطة ذلك الحق بضمانات تكفل حرية التعبير عن ذلك الحق حرية تامة كما تكفل للسودانيين الحق فى تكييف الحقوق الطبيعية مع مصر باتفاق خاص بين الشعبين المصرى والسودانى .

٢ - تأسيس هيئة تمثيلية من السودانيين لاقرار الميزانية والقوانين .

٣ - تأسيس مجلس أعلى للتعليم أغلبيته من السودانيين وتخصيص ما لا يقل عن ١٢ فى المائة من الميزانية للتعليم .

٤ - فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية .

٥ - الغاء قوانين المناطق المقفولة ورفع قيود الاتجار والانتقال عن

السودانيين داخل السودان .

٦ - وضع تشريع بتحديد الجنسية السودانية .

٧ - وقف الهجرة الى السودان فيما عدا ما قررته المعاهدة الانجليزية المصرية .

٨ - عدم تجديد عقد الشركة الزراعية بالجزيرة .

٩ - تطبيق مبدأ الرفاهية والأولوية فى الوظائف وذلك :-

أ - باعطاء السودانيين فرصة الاشتراك الفعلى فى الحكم بتعيين سودانيين فى وظائف ذات مسئوولية سياسية في جميع فروع الحكومة الرئيسية .

ب- قصر الوظائف على السودانيين اما المناصب التى تدعو الضرورة لملئها بغير السودانيين تملأ بعقود محدودة الأجل يتدرب فى أثنائها سودانيون لملئها فى نهاية المدة .

١٠- تمكين السودانيين من استثمار موارد التجارية والزراعية والصناعية .

١١- وضع قانون بالزام الشركات والبيوتات التجارية بتحديد نسبة معقولة من وظائفها للسودانيين .

١٢- وقف الاعانات لمدارس الارساليات وتوحيد برامج التعليم فى الشمال والجنوب .

هذه هى المطالب التى نرى فى استجابتها ارضاء لرغبات السودانيين فى الوقت الحاضر والمؤتمر يتطلع الى معونتكم ويأمل أن يحظى بما يفيد الموافقة عليها والشروع فى تنفيذها .

وتفضلوا يا صاحب المعالى بقبول فائق الاحترام ،

خادمكم المطيع : ابراهيم أحمد رئيس مؤتمر الخريجين العام

أم درمان فى ٣ ابريل سنة ١٩٤٢

الفصل الثامن

السودانيون ومفاوضات القاهرة

أدى موقف الحكومة من المؤتمر واعدادها لانشاء المجلس الاستشارى لشمال السودان الى انقسام الخريجين الى فريقين ، الأول منهما يتسم بالاعتدال ، ويثق فى وعود حكومة السودان ، ويتعاون معها لتحقيق أهدافه الرامية الى اشراك السودانيين فى الحكم ، والثانى يتهمها بمعاداة الطبقة المستنيرة ، وانكار حق المؤتمر فى التحدث باسم السودانيين ، وبالتالى رفضها نقل آرائه الى دولتى الحكم الثنائى ، ومضيها قدماً فى تنفيذ سياستها الرامية ، فيما كانوا يقولون ، لاخضاع السودان ، وعزله عن العالم الخارجى . ويتهمونها بعدم الأمانة والتسلط .

وكان ذلك أخطر انقسام يتعرض له المؤتمر منذ انشائه . ورأى الفريق الذى فقد الثقة فى حكومة السودان أن يتجه نحو مصر ، وأن يتعاون معها لتحرير السودان من قبضة الانجليز واستعمارهم ، وأن يكون ذلك برفع شعار الاتحاد معها تحت التاج المصرى .

وكان بين الفريق الأول الذى فقد الثقة فى الانجليز ، بل قائده ، السيد اسماعيل الازهرى الذى تولى رئاسة المؤتمر دورات عدة .. وكان منهم أيضاً صاحبنا الذى نترجم قصة حياته فى هذه الصفحات .

وترتب على هذا الانقسام أن انسحب المعتدولون من المؤتمر ، فانشأوا حزب الأمة الذى جعل شعاره " السودان للسودانيين ، " ومبدأه استقلال السودان . وقامت معه أحزاب استقلالية أخرى صغيرة . وكان

حزب الأمة يتمتع بتأييد الأنصار بزعامة سيادة السيد الامام عبد الرحمن المهدى .. ونشأت من الناحية الأخرى أحزاب اتحادية ، كان أكبرها حزب الأشقاء الذى استمد سنده الشعبى من طائفة الختمية بزعامة سيادة السيد على الميرغنى واستفاد من الخلاف الذى كان قائماً بين الطائفتين والتنافس بين زعيميهما .. وكانت الأحزاب الاتحادية تنادى بالاتحاد مع مصر على درجات متفاوته .. تبلغ فى حالة المغالين منهم كحزب وحدة وادى النيل ، درجة الاندماج فيها ، وفى حالة أضعفهم اتحادية ما هو دون هذا بكثير .

وكانت الحكومة المصرية فى سبتمبر من عام ١٩٤٥ قد أبدت لبريطانيا رغبتها فى تعديل معاهدة ١٩٣٦ بما يحقق الأمانى القومية لسكان وادى النيل واستجابت الحكومة البريطانية ، وتقرر أن تبدأ المفاوضات فى القاهرة فى مارس من عام ١٩٤٦ .

يقول أحمد خير وهو يصف الموقف فى السودان على اثر سماع انباء القاهرة :-

" استيقظ الرأى العام فى السودان وأفاق من غيبوبة الحيرة ، ونزع عن نفسه شعور اليأس . ثم تعاقبت الحوادث وتلاحقت فى القاهرة، وانتهت بقبول الحكومة الانجليزية الدخول فى مفاوضات مع مصر لتعديل معاهدة ١٩٣٦ . هنا انتابت الرأى العام السودانى هزة انتكاس وخيبة أمل ، وكان من دواعى هذا الاشفاق وهذا القلق أن ضاعف العزم وشحذ الهمم . وعاد شبح التجربة القاسية التى مرت بالسودان عقب معاهدة ١٩٣٦ يلوح فى الأفق ، وكان من رأى الكثيرين ألاَّ يتركوا هذه الفرصة تفلت من أيديهم .

" واتجهت الأنظار الى المؤتمر ، وقدمت له الاقتراحات لارسال وفد يمثل جميع الأحزاب ، وقابل قادة المؤتمر هذه الروح بمثلها ، وأعلنوا

عن عزمهم على ارسال الوفد ، وطلبوا الاكتتاب لتكوين المال اللازم له ، لكن الدعوة لم تهز الرأى العام كما كان مقرراً لها ، اذ اتضح أن المؤتمر منطو على ارسال وفد يتسم بالقومية ويقوم على الحزبية ، وذلك بأن يجند بعض الاشخاص بصفتهم الشخصية ، تختارهم لجنته اختيارا لايتقيد بتمثيل الاحزاب . او يكون للأحزاب رأى فى ايفادهم • وبينما كان الوسطاء يتباحثون فى هذه المسائل الدقيقة ، جاء من القاهرة فجأة ودون مقدمات صوت يحمل عتاب الطلبة القاهريين على زملائهم فى السودان لموقفهم السلبى من قضية الحرية • واستجاب طلبة المدارس العليا لهذا النداء ، وسارت فى الخرطوم أول مظاهرة بعد مرور اثنتين وعشرين سنة على حوادث ١٩٢٤ • وسرعان ما تكهرب الجو ، واقتدى بالمدارس العليا وسايرها طلبة المدارس الثانوية فى الخرطوم وأم درمان وضواحيها ، فأعلن المؤتمر قراراً بارسال وفد ، بل حدد الثانى والعشرين من مارس ١٩٤٦ موعداً لسفره • وكان المؤتمر مصراً على قصر عضوية الوفد على الوضع الذى ذكرنا سابقاً ، غير أن مؤتمرى القاهرة ، وكانوا ممن اقترحوا قدوم وفد سودانى ، نصحوا بضرورة تمثيل الأحزاب كلها • ومن جهة أخرى فان الوسطاء فى الخرطوم من صفوف الخريجين ، ومن اتحاد الطلبة ، تدخلوا تدخلاً ايجابياً وحازماً ، بدا معه أن سفر وفد لا يمثل الأحزاب أمر محفوف بالعقبات والعراقيل • وانتهى الأمر فى السويعات الأولى من صباح ٢٢ مارس على تمثيل الأحزاب • وتغلب الوسطاء على نسبة التمثيل ، فبارح أول فوج الخرطوم يوم ٢٢ مارس ولحق به الآخرون تباعاً فى ظرف اسبوع •. وكان وداع الجماهير ضخماً وحافلاً مما يعكس ضخامة الآمال التى كان يعلقها عليه •

وكانت الاحزاب السياسية قد اتفقت على ميثاق التفت حوله ينص على ما يلى :ـ

١ - قيام حكومة سودانية ديمقراطية فى اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا ، على أن تختار الحكومة السودانية عند قيامها نوع التحالف مع بريطانيا على ضوء ذلك الاتحاد .

٢ - طلب تعيين لجنة مشتركة ، نصفها من ممثلى الحكومة الثنائية، والنصف الآخر من ممثلى الطبقة المستنيرة من السودانيين ، على أن يتولى المؤتمر تعيين الممثلين السودانيين ، تتولى مقاليد الحكم فى البلاد فى أقصر أمد ممكن بشرط أن تعطى الحكومة لهذه اللجنة كل التسهيلات اللازمة لاداء مهمتها ، وأن تلتزم بتنفيذ توصياتها .

٣ - المطالبة باطلاق الحريات العامة كحرية الصحافة ، والاجتماعات، والتنقل ، والتجارة فى حدود القوانين العامة التى تتمشى مع الأسس الديمقراطية الصحيحة ، وتعديل القوانين الخاصة القائمة المقيدة لهذه الحريات .

وقد وقع على هذا الميثاق مندوبو الأحزاب تأكيداً لرغبتهم فى الائتلاف ، مما اعتبره الاستاذ أحمد خير خطوة موفقه قائلاً :

" الدليل على ذلك (التوفيق) أن وزير الخارجية البريطانية أحس خطورته ، فوقف يهاجمه فى مجلس العموم ويقلل من شأنه ، وينكر تمثيله للسودان أو تأييد الرأى العام السودانى له . ثم استطرد الوزير معلناً أن سياسة بريطانيا نحو السودان هى اعداده للحكم الذاتى، والأخذ بيده نحو الاستقلال . "

وكان صاحبنا أحد اعضاء الوفد السودانى للقاهرة .. ولم يكن الميثاق الذى التفت حوله الأحزاب الممثلة فى الوفد مرضياً للزعماء والساسة المصريين الذين استقبلوا الوفد بحماسة منقطعة النظير، اذ رأوا فيه ضعفاً ووهناً بالنسبة لما كانوا يتطلعون اليه وهو اتحاد البلدين

تحت التاج المصرى .. ومارست الاحزاب والتنظيمات السياسية على الوفد ضغطاً شديداً ليتخلى عن ميثاقه ، وينادى بما كانت تنشده.. وأدى هذا الموقف فى نهاية المطاف الى انقسام الوفد ، وانسحاب حزب الأمة منه ، فاقتصرت عضويته بعد هذا الانسحاب على الأحزاب الوحدوية.. وكان صاحبنا يقف معها ويؤازرها لا حباً فى التاج المصرى أو ايماناً منه به ، ولكن لأنه كان ، السبيل الوحيد عنده للتحرر من القبضة الانجليزيه .

ولم يجد الوفد من الحكومة المصرية ما كان يتطلع اليه من ترحاب.. بل لعل الحكومة المصرية فى ذلك الوقت كانت تحرص على حل القضية المصرية ، وتحقيق مطالب الشعب المصرى فى الجلاء بأكثر مما كانت تحرص على حل قضية السودان .. من هنا كان وجود الوفد السودانى فى القاهرة مبعث ضيق لها . أما الأحزاب الأخرى ، لاسيما حزب الوفد صاحب الاغلبية الشعبيه ، فقد احتضن الوفد ، وقدم له من العون كل ما طلب ، وفتح له صفحات جرائده ليبشر فيها بمبادئه . وكانت هذه فرصة عظيمة لصاحبنا يعبر فيها عن آرائه السياسية .. ووجد فى الدكتور محمد مندور ، رئيس تحرير جريدة الوفد المصرى صديقاً وزميلاً مناصراً ومؤازراً يختصه بعنايته .. وكان الاستاذ أحمد خير فى ذلك الوقت جامحاً فى تطرفه لا يقف فى سبيله شئ .. ولم يقتصر نشاطه على ما كان ينشر من مقالات فى صحيفة " الوفد المصرى " ، بل أصدر أيضاً كتابه " مآسى الانجليز فى السودان " الذى تبناه الوفد ، وكان له رأى محدد فى اغراض اتحاد السودان مع مصر ومراميه هو توطيد اركان الديمقراطية ، وتوفير اسباب السعادة والحرية الكريمة ، وتجنيب المواطنين الوقوع فى الاخطاء التى وقع فيها غيرنا من المجتمعات الانسانية .

اذن فقد كانت الدولة الفدرالية المؤلفة من مصر والسودان عنده ، كما ورد فى كتابه " كفاح جيل " سبيلاً للديمقراطية السليمة التى

تكفل للمواطنين فى مصر والسودان على السواء حرية القول بجميع وسائله ، وحرية العقيدة ، وتهيء للجميع الفرص بالتساوى ، واللامركزية الادارية .

هذه كانت اهدافه ومبادؤه ، التحرر من قبضة الاستعمار الانجليزى ، والتعاون الصادق بين الشعبين الشقيقين لتحقيق الحرية والديمقراطية وسيلة لخير المجتمع وعزة الانسان .

وانتقلت المفاوضات من مصر الى لندن . وتم اتفاق مبدئى بين رئيس الوزراء المصرى اسماعيل صدقى باشا ووزير الخارجية البريطانى مستر ارنست بيفن حول مسألة السودان التى كانت توصف دائماً بأنها الصخرة التى تتحطم عندها المفاوضات .. وكان ذلك الاتفاق الذى وقعه الرجلان بالأحرف الأولى من اسميهما واسمياه " بروتوكول السودان " قد اعترف بوحدة مصر والسودان ، ونص على ما يلى :

" ان السياسة التى يتعهد الطرفان الساميان المتعاقدان باتباعها فى السودان ، فى نطاق وحدة مصر والسودان تحت تاج مصر المشترك ، ستكون اهدافها الأساسية تحقيق رفاهية السودانيين ، وتنمية مصالحهم ، واعدادهم اعداداً فعلياً للحكم الذاتى ، وتبعاً لذلك ممارسة حق اختيار النظام المقبل للسودان . والى أن يتسنى للطرفين الساميين المتعاقدين بالاتفاق التام المشترك بينهما تحقيق هذا الهدف الأخير بعد التشاور مع السودانيين ، تظل اتفاقية ١٨٩٩ سارية ، وكذلك المادة (١١) من معاهدة ١٩٣٦ مع ملحقاتها .... "

ويختلف المفاوضات بعد هذا فى تفسير هذا البروتوكول على اثر الانتفاضة التى انطلقت ضده عن الجبهة الاستقلالية وفى مقدمتها حزب الأمة فى السودان .. مصر ترى ألاّ سبيل لانفصال السودان من قبضة تاجها وخضوعه له .. وبريطانيا ترى أن البقاء تحت التاج المصرى أو خروج منه رهين بارادة السودانيين ..

وازاء هذا الاختلاف تفشل المفاوضات من جديد ، ويستقيل رئيس الوزراء المصرى ، ويحل محله رئيس وزراء جديد هو محمود فهمى النقراشي باشا الذى ينتقل بالقضية الى مجلس الأمن • ويطلب منه اتخاذ قرار بابعاد الانجليز عن السودان ، والأعتراف بالسيادة المصرية عليه •• ولكن مجلس الأمن ، يرفض هذا النداء ، ويقر لأهل السودان بحق تقرير المصير ، ويعلق القضية المصرية •

وفى الخرطوم تمضى حكومة السودان قدماً فى تنفيذ سياستها فتعلن عن قيام الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذى بدلاً للمجلس الاستشارى ، وتمهل مصر بعض الوقت للموافقة على هذه الخطوة ومباركتها وتأييدها قبل أن تضعها موضع التنفيذ •• ولكن مصر تأبى أن تستجيب •

وينقسم الرأى السودانى العام الى فريقين ازاء هذه الأحداث ، الجبهة الاستقلالية تؤيدها ، وتعتبرها خطوة ايجابية فى طريق التطورات الدستورية المؤدية للحكم الذاتى فالاستقلال •• والاتحاديون يرفضونها ويقاومونها •• ويزحمون الطرقات بمظاهراتهم ضدها •• والمنابر باستنكارهم لها •• ويصطدم المتظاهرون برجال الأمن ، ويسقط فى هذه المظاهرات شهداء فى عطبره وبورتسودان والخرطوم ، وكان الاستاذ صاحبنا فى هذا الوقت قد عاد من القاهرة الى السودان •• ومضى الى مكان عمله فى المحاماه بواد مدنى •• وأخذ هناك يلهب المشاعر ضد الجمعية التشريعية ، ويقود المظاهرات •

ويلقى عليه القبض

ويقدم للمحاكمة •• وتدينه المحكمة ، وتحكم عليه بالسجن سنتين يمضى جزءا منهما بسجن واد مدنى ثم ينقل الى السجن العمومى فى الخرطوم بحرى ـ كوبر ـ فيجد معه فيه كثيراً من قادة الاحزاب الاتحادية الذين قاوموا الجميعة التشريعية فى الخرطوم من امثال السيد اسماعيل الأزهرى ، ويحى الفضلى ، وخضر عمر ، وسليمان موسى ،

ومحمد نور الدين وغيرهم كثير .

وذات يوم يزور السجن المستر هيز ، استاذ صاحبنا فى مدرسة الحقوق وصديقه .

وكان المستر هيز قد انتقل من التدريس الى منصة القضاء فى الهيئة القضائية .

وتحدث الرجلان .. أحمد فى ملابس سجنه .. مرسل الشعر ، قليل الاهتمام بمظهره يحكى للزائر قصة سجنه .. والاستاذ يستمع ويعلق ، وتنتهى الزيارة .. ويعود المستر هيز من حيث أتى ..

وما هو الأ وقت قصير ، ايام معدودات ، حتى تخفض فترة السجن من عامين الى ستة اشهر ويمنح أحمد معاملة خاصة .

ويخرج من السجن بعد أن يمضى فترة حبسه ، أصلب عوداً، واشد تصميماً على مقاومة الاستعمار .

ويظل هذا دأبه حتى يوليو ١٩٥٢ عند قيام الثورة المصرية التى اطاحت بالملكية فى مصر عرش الملك فاروق .. واقرت فيما بعد للشعب السودانى بحق تقرير المصير على اثر مفاوضاتها مع قادة احزابه .. وعقدت مع بريطانيا إتفاقية السودان التى قضت بقيام الحكم الذاتى ، وتصفية الحكم الثنائى وتقرير المصير على اساس الاستقلال أو الاتحاد مع مصر ..

وكان ذلك فى الثانى عشر من فبراير ١٩٥٣ .

وتشاء الصدف أن يكون هذا اليوم، الثانى عشر من فبراير، هو نفس اليوم الذى عقد فيه مؤتمر الخريجين العام اجتماعه التأسيسى بنادى خريجى مدارس السودان بأم درمان عام ١٩٣٨ .

الفصل التاسع

انقلاب نوفمبر ١٩٥٨

كان حزب الأشقاء قد انقسم على نفسه فى مستهل الخمسينات ، فريق منه يرأسه السيد اسماعيل الأزهرى ، ويقف معه فيه السادة يحى الفضلى وأخوه محمود ، وابراهيم جبريل ، ومبارك زروق ، وامام ابراهيم ، وحسن عوض الله ، وابراهيم المفتى ، وبابكر القبانى ، وعلى حامد وغيرهم من المؤسسين الأصليين للحزب • وكان يرأس الفريق الآخر السيد محمد نور الدين ، وكيله قبل الانقسام ، ويقف معه السادة خضر عمر ، وأحمد خير ، وحسن أبو حبل ، وعثمان خاطر وعلى الشيخ البشير وآخرون • وكانت الثورة المصرية بقيادة اللواء محمد نجيب ، التى اندلعت فى يوليو من عام ١٩٥٢ ، قد دعت قادة الفريقين فى من دعت من قادة الأحزاب السودانية فى اكتوبر من ذلك العام ، للتشاور معهم حول أمر السودان ، والحكم الذاتى فيه ، وتصفية الحكم الثنائى توطئة لتقرير المصير ، والاتفاق على أسس للمفاوضات التى كانت على وشك الدخول فيها مع بريطانيا •

وكان هذا الانقسام فى حزب الأشقاء ، أكبر الأحزاب الاتحادية ، وأكثرها نفوذاً ، يثير قلق مصر على القضية الاتحادية التى كانت تحرص عليها ، وكانت قد بذلت بعض الجهود فى الخرطوم لرأب الصدع ، ولكنها انقطعت بسبب السفر الى القاهرة • واستطاع اللواء نجيب ، بما عهد فيه من حسن القصد ، وما كان يربطه بالفريقين من أواصر الصداقة ، أن يؤثر على الأحزاب الاتحادية كلها لتوحيد كياناتها فى حزب واحد ، تتوفر له أسباب الفوز فى انتخابات الحكم الذاتى • وتم الاتفاق فى لقاء له مع قادة هذه الأحزاب على اسناد مسئولية هذا

التوحيد لثلاثة رجال ليس من بينهم أحد من الاشقاء ولكنهم موضع ثقة الأحزاب كلها ، هم السادة ميرغنى حمزة من كبار الخريجين ومؤسسى المؤتمر من قادة حزب الجبهة الوطنية ، ومستشارى سيادة السيد على الميرغنى ، زعيم طائفة الختمية ، والدرديرى أحمد اسماعيل ، زعيم حزب وحدة وادى النيل ، وخضر حمد من قادة حزب الاتحاديين ومؤسسيه .

وكان لهذا الجهد من اللواء نجيب صدى حسن فى نفوس الأحزاب الاتحادية التى كانت تخشى الفشل فى الانتخابات ان هى خاضتها مشتتة مقسمة .. وحظى بتأييد من الصحافة المصرية ، وقد علقت عليه صحيفة " المصرى " التى كانت قبل الثورة تنطق باسم حزب الوفد ، فى عددها الصادر فى مستهل نوفمبر من عام ١٩٥٢ تقول :ـ

" الفت لجنة ثلاثية لادماج الأحزاب الاتحادية فى السودان ، ولسنا فى حاجة الى القول بأنه على عمل هذه اللجنة يتوقف النجاح الكامل لهذه الخطوة التاريخية ، وعلى حكمة اعضائها يحقق الاتحاديون فى السودان هذا الأمل الذى داعب نفوسهم مرات ولكن الخطوات التنفيذية كانت تتعثر ، لأن النفوس لم تكن ، فيما يبدو ، مهيأة لهذا الاتحاد المنشود . والواقع أن حكمة هذه اللجنة وشعورها بالمسئولية الملقاة على عاتقها ، واستهداف المصلحة العامة وحدها ، هى التى ستؤدى الى أن يتكتل الاتحاديون ويصبحوا قوة واحدة .. قوة تبين مبلغ الفائدة أو المصلحة المشتركة التى ستعود على الوادى من هذا الاتحاد ، ولعل هذه الأمنية ليست أمنيتنا ، بل هى أمنية شعب وادى النيل ، ثم هى امنية الأشخاص الذين اشتركوا فى هذا العمل ، والذين انتهوا به الى تحقيق الاتحاد . "

يحدثنا السيد خضر حمد فى مذكراته أن تلك اللجنة استعرضت الظروف والملابسات التى حملت رؤساء الأحزاب الى اتخاذ ذلك القرار

الوطني الحاسم فيما يختص بحل احزابهم ، وهيئاتهم ، ودمجها عن رغبة في حزب واحد ، تذوب فيه المطامع والمظاهر . ورأت ألآ تدخل السيدين يحى الفضلى وخضر عمر في اللجنة التنفيذية للحزب المقترح حتى تستقر الأوضاع فيه ، لأن الخصومة بينهما كانت شديدة ، والتعاون شبه مستحيل،وأن تقصى أيضاً السيد بابكر القبانى من هيئة الحزب ، بسبب حالته الصحية في ذلك الوقت ، وضعف ثقة السيد محمد نور الدين فيه . واتفق أعضاء اللجنة أيضاً على ترك أمر تكوين مكتب الحزب الى الهيئة واللجنة التنفيذية ، ولكن اللواء محمد نجيب ، عند اجتماع اللجنة به ، قبيل اعلان مقترحاتها على زعماء الأحزاب ، تمسك بضرورة اختيار المكتب حتى لا يتعرض الاتفاق الى خطر .. وقررت اللجنة ، ومعها اللواء نجيب ، أن تختار السيد اسماعيل الأزهرى للرئاسة ، والسيد محمد نور الدين للوكالة ، والسيد خلف الله خالد أميناً للصندوق ، وتم ايضاً اختيار السيد خضر حمد سكرتيراً عاماً .. وأعلن مشروع التكوين يحمل اسم الحزب وهو " الحزب الوطنى الاتحادى " وأهدافه ، وادارته ، ولجنته التنفيذية ، وهيئته العامة ، أعلن على قادة الأحزاب فنال مباركتهم وتأييدهم ، وأخذ الحزب الجديد منذ تكوينه يمارس نشاطه رغم ما كان في بعض النفوس من غضب .

ويقول اللواء محمد نجيب عن هذا الحدث الهام في كتابه " كلمتى للتاريخ " ما يلى :-

" كانت الخطوة الأساسية الأولى هى جمع السودانيين بمختلف احزابهم على موقف موحد تعاونهم فيه مصر .. وقررت من أجل ذلك دعوة جميع زعماء الأحزاب السودانية الى القاهرة ومعهم الزعيمان المهدى والميرغنى .

" وجاءت وفود الأحزاب السودانية ، وحضر السيد عبد الرحمن المهدى ، واعتذر السيد على الميرغنى عن عدم امكانه الحضور في

فصل الشتاء ، وأجل موعد زيارته للصيف .

" وبدأنا المفاوضات مع وفود الأحزاب السودانية .. وكان معظم اعضاء الوفود من معارفي واصدقائي وزملاء دراستي .. وكانت تربطني بهم علاقات وثيقة متجددة .

" ورأست هيئة المفاوضات مع الوفود السودانية .. ولم تطل كثيراً حيث وجد السودانيون منا صدوراً مفتوحة ، ولمسوا منا حرصاً على التعاون ، وتأكدوا أن اللعبة الانجليزية لا تستهدف سوى تصفية استغلال السودان وفرض العزلة عليه بعيداً عن مصر .

" وكان هدفي الأول بعد ذلك هو توحيد الأحزاب السودانية الاتحادية حتى تجتمع كلمتهم على رأى واحد .. وقد وافقت هذه الأحزاب على ذلك باتصالاتي الشخصية معهم ، وفوضت لجنة ثلاثية من الدرديري أحمد اسماعيل وخضر حمد وميرغني حمزة . "

" ولم يطل عمل اللجنة كثيراً .. انتهت بعد اربعة أيام في ٣ نوفمبر ١٩٥٢ من وضع ميثاق تأليف الحزب .. واذكر أنهم حضروا جميعاً الى داري ، ووقعوا فيها ميثاق تأليف " الحزب الوطني الاتحادي " الذي ضم كافة الأحزاب الاتحادية .. وكان ذلك قبل بدء مباحثاتنا مع الحكومة البريطانيه .

" اختار الحاضرون اسماعيل الأزهري رئيساً للحزب ، ومحمد نور الدين نائباً له ، ونص دستور الحزب على جلاء الانجليز وقيام اتحاد مع مصر بعد تقرير المصير .

" كانت هذه اللحظات من امتع فترات حياتي ، التقى فيها مع الأشقاء من الجنوب ولهم في قلبي أعز مكان .. واشهدهم يحققون وحدة وطنية تقرر الابتعاد عن الاستعمار البريطاني ، والاتحاد مع مصر .. وصدق ايماني في أن المصري والسوداني لا يمكن للاستعمار أن يفصل

بينهما . "

هذا ما جاء في كتاب الرئيس اللواء محمد نجيب عن قيام الحزب الوطني الاتحادي . ونرجع الى الاستاذ خضر حمد يحدثنا عن أول انقسام يقع فيه بعد انشائه ، يقول :-

بدأنا باجتماع لهيئة الحزب بعد أن هدأت الثورة على التكوين ، وأخذنا نفرض البنود التي وافقنا عليها ، وما يتفاوض المصريون والانجليز عليه .. وسعينا للحصول على تأييد الهيئه العامة أولاً ، قبل أن نشرح ذلك الاتفاق للجماهير في الليالي السياسية بالعاصمة والاقاليم

" وكان اجتماع الهيئة صاخباً ، ووقف يعارض الاتفاقية جناح فيه السادة أحمد خير ، وخضر عمر ، وحسن أبو جبل وآخرون من الاخوان اعضاء الهيئة واللجنة التنفيذية . وجلسنا الساعات الطوال لشرح الاتفاقية ، ندافع عنها ونقول أنها خطوة سليمة .

"أما المعارضون فكانوا يقولون أنها خدعة انصرافية ، وأن الطريق الى الحرية هو طريق الكفاح والنضال ، لا طريق المعاهدات ، وأن الانجليز لا يحترمون ميثاقاً . واخيراً أخذ الرأى بالموافقة فخرج المعارضون على الحزب . "

وهكذا اعتزل السيد أحمد خير العمل السياسي الحزبي .. كما اعتزله في تلك المرحلة أيضاً السيد خضر عمر الذى هاجر للعمل في المملكة العربية السعودية .. وكان من آثار هذا الابتعاد أن لم يترشح السيد أحمد خير لعضوية البرلمان خلال انتخابات الحكم الذاتي وبالتالي لم يتقلد منصباً وزارياً ، ونأى بنفسه عن العاصمة ، وانصرف الى نشاط مكتبه في المحاماة بالنيل الازرق وكردفان .

وعقب اعلان الاستقلال في عام ١٩٥٦ نقل مكان عمله الى الخرطوم وطلب اليه أن يرأس اللجنة القومية لرسم الدستور الدائم للسودان

فاستجاب ، وانكب على تلك المسئولية العظمى يصرفها ، رغم العقبات والاطماع التى كانت تقعد بااللجنة القومية .

وشهد عام ١٩٥٨ سلسلة من الانقلابات والاضطرابات فى كثير من اقطار العالم الثالث والدول المحيطة بالسودان ، نذكر منها انقلاب بورما وانقلاب باكستان وانقلاب العراق بزعامة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف الذى ثل العروش هناك وقتل السياسيين البارزين فى ذلك البلد العربى الشقيق ، ومارس كثيراً من الاعمال الوحشية التى تقشعر لها الأبدان كالسحل وما اليه .

وخشى بعض كبار المواطنين ، والاستاذ أحمد خير منهم ، على السودان أن تمتد اليه موجة الانقلابات تلك ، خاصة بعد أن تأكد دور الولايات الامريكية فيها . وتألفت لجنة للتوسط بين الأحزاب السياسية لانشاء حكومة قومية ، تنتظم الأحزاب كلها ، وتعصم السودان من شر الانقلابات . وكان يحكم السودان فى ذلك الوقت حكومة ائتلافية جناحاها الرئيسيان حزب الأمة وحزب الشعب الديمقراطى الذى كان قد انسلخ عن الحزب الوطنى الاتحادى ، بمباركة الطائفة الختمية .. وبذلت هذه اللجنة القومية جهوداً جبارة لبلوغ غايتها ، ونالت التأييد من كثير من قادة الأحزاب السياسية . وكانت الحكومة الائتلافية قد تلقت تقارير من القاهرة عن لقاء زعم أنه تم فيه بين قادة الحزب الوطنى الاتحادى وحزب الشعب الديمقراطى بحضور الرئيس جمال عبد الناصر ، رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، تم فيه الاتفاق على الاطاحة بحكومة السيد عبد الله بك خليل ، رئيس الوزراء ، واعلان الاتحاد مع مصر ، وكانت العلاقة بين عبد الله بك خليل وحلفائه من قادة شعب الشعب الديمقراطى ، خاصة رئيسه السيد على عبد الرحمن الأمين ، متوترة بسبب العراقيل والعقبات التى كان يضعها حزب الشعب أمام نشاط اللجنة الوزارية للدستور ، وبسبب الميول الاتحادية التى كان يتميز بها ، وبسبب رفضه للمعونة الامريكية .

وازاء هذه الظروف ، والمشاكل التى كانت تقعد بالحكومة عن أداء واجبها ، من اضرابات النقابات العمالية ، واشتداد شوكة التمرد فى المديريات الجنوبية ، وتردى الاوضاع الاقتصادية بسبب كساد سوق القطن ، المحصول النقدى الرئيسى للبلاد ، مما انعكس سوءاً على تعمير امتداد المناقل وفق الخطة المرسومة له ، رأى رئيس الوزراء ، عبد الله بك خليل ، وقد كان أيضاً وزيراً للدفاع ، أن يسحب البساط من تحت اقدام السياسيين ويلقى باعباء الحكم على قادة الجيش اثر انقلاب عسكرى يعلنونه ، يعطل الدستور المؤقت ، ويحل الأحزاب السياسية ، والبرلمان ويعطل الصحف .

يحدثنا عن هذا الانقلاب ودوافعه السيد على عبد الرحمن الأمين ، رئيس حزب الشعب الديمقراطى وشريك حزب الأمة فى الحكومة الائتلافيه ، يحدثنا فى كتابه " الديمقراطية والاشتراكية فى السودان " فيقول :ـ

" كان الخلاف بين الحزب الوطنى الاتحادى وحزب الشعب الديمقراطى قد بلغ ذروته ، وصادف أن زرت القاهرة مع المرحوم الدكتور أمين السيد ، وزير الصحة ، فى أثناء وزارة عبد الله خليل الائتلافية فى مهمة رسمية انتدبنا من أجلها السيد عبد الله خليل نفسه . وصادف أن زار المرحوم السيد اسماعيل الأزهرى ووفد من قادة حزبه القاهرة أثناء جولتهم فى البلاد العربية ، ولم نجتمع فى القاهرة الأ فى حفل مشترك دعانا اليه سفير السودان بالقاهرة فى منزله ، وحفل آخر دعانا له المرحوم محمد صالح حرب ، وحضره معنا السفير السودانى أيضاً . ولم يدر فى الحفلين الأ الحديث العادى المشترك ، ولكن السفير الامريكى بالقاهرة كتب الى زميله بالخرطوم يخبره أن قادة حزب الشعب الديمقراطى ، وقادة الحزب الوطنى الاتحادى اجتمعوا اثناء وجودهم بالقاهرة واتفقوا على التضامن من داخل البرلمان لاسقاط وزارة عبد الله خليل ، وتأليف وزارة ائتلافية منهما تقرر الوحدة بين السودان والجمهورية العربية المتحدة ، وأن الرئيس جمال عبد الناصر

وراء هذا الاجتماع ، فذهب السفير الامريكى بالخرطوم للسيد عبد اللـه خليل وأطلعه على هذه الرسالة فدهش عبد الله خليل ، لأنه تلقى فـى نفس الوقت رسالة من سفير السودان بالقاهرة تحمل اليه الخبر ،مما جعل عبد الله خليل يسارع فيجتمع بالسيد عبد الرحمن المهدى وكبار رجـال حزب الأمة لاطلاعهم على النبأ الخطير ، لم يمض على ذلك يـــوم أو يومان حتى اجتمع فى جنح الظلام حزب الأمة والفريق ابراهيم عبـــود ، وثلاثة من كبار ضباط الجيش ، واتفقوا على أن يسلم عبد الله خليـــل زمام السلطة لعبود ورفاقه ، وأن يتم ذلك فى شكل انقلاب عسكـــرى ، على أن يتولى الجيش الحكم فترة من الزمن يحل فيها البرلمان ، ويحل جميع الأحزاب ، وبعد أن تستقر الأمور يرجع الجيش الى ثكناته .. "

هذا ما سجله السيد على عبد الرحمن فى كتابه نورده بنصه ، ولكـن يجب علينا أن ننبه الى أن الخصومة بينه وبين عبد الله بك خليــــل كانت على أشدها رغم تعاونهما فى الحكومة ، والتنافس بين الطائفتين الدينيتين ، الأنصار والختمية ، كان قد أطل من جديد بسبب ما اشيع حول تطلع سيادة المهدى لتقلد منصب رئاسة الجمهورية . وعليــــه فيلزم أن يؤخذ حديث السيد على عبد الرحمن بشىء من الحذر .

مهما يكن من أمر فقد استطاع عبد الله بك خليل أن يقنع قـــادة الجيش فى الخرطوم ، الفريق ابراهيم عبود ، القائد العام ، واللـواء أحمد عبد الوهاب نائبه ، واللواء حسن بشير نصر ، رئيس هيئـــة الأركان وغيرهم من كبار الضباط ، بالاقدام على هذه الخطوة علـــى أن تكون حكومتهم ممثلة لسائر الاتجاهات السياسية ، ذات برنامج محدد الأجل تعود بعد تنفيذه الحياة المدنية من جديد .

وفى فجر يوم الانقلاب ، السابع عشر من نوفمبر ١٩٥٨ ، استدعـى قادة الجيش الأستاذ أحمد خير من منزله ، واطلعوه على ما اعتزمـوا القيام به ، وطلبوا منه أن يعمل مستشاراً قانونياً لهم أول الامـــر .

وكان سيادته فى ذلك الوقت ضيق الصدر بالأوضاع العامة فى البـــلاد ، شديد الخشية على مكاسبها ، فاستجاب للرجاء . وكان قد التقـــى بالفريق ابراهيم عبود فى جوبا حين ذهب اليها ليشترك فى هيئـــة الدفاع عن الضباط والجنود الجنوبيين المتمردين . وقد كان الفريـــق عبود رئيساً للمحكمة العسكرية التى مثلوا للمحاكمة أمامها .

وفى الموعد المحدد لبدء نشرة انباء الصباح فوجئ المواطنون فـــى جميع انحاء السودان بموسيقى عسكرية ينقل لهم المذياع الحانهـــا .. ثم بصوت الفريق ابراهيم عبود يتلو عليهم البيان التالى الذى رأينـــا أن نثبته هنا ليطلع عليه من لم يفعل من ابناء الجيل الجديد .

قال :.

" كلكم يعلم ويعرف تماماً ما وصلت اليه حالة البلاد من ســـوء وفوضى وعدم استقرار للفرد وللمجموعة ، وقد امتدت هذه الفوضى الـى أجهزة الحكم والمرافق العامة بدون استثناء ، كل هذا يرجـــع أولاً وأخيراً الى ما تعانيه البلاد من الازمات السياسية القائمة بين الأحزاب جميعاً ، كل يريد الكسب لنفسه بشتى الطرق والاساليب المشروعـــة منها وغير المشروعة ، وباستخدام بعض الصحف والاتصال بالسفـــارات الاجنبية ، وكل ذلك ليس حباً فى اصلاح السودان ، وحفظ استقلالـــه وتقدمه ، ولا رغبة فى صالح الشعب المفتقر للقوت الضرورى ، ولكنـــه جرياً شديداً وراء كراسى الحكم والنفوذ والسيطرة على موارد الدولـــة وامكانياتها . وقد طال وكثر ذلك ، وصبرنا على تلك الحكومـــات الحزبية حكومة تلو الأخرى آملين أن تتحسن الأحوال ويسود الاستقـــرار ، وتطمئن النفوس ، وتزول الكراهية الكامنة فى النفوس والقلوب ، ولكـــن مع الأسف الشديد لم تزد الحالة الاَّ سوءا على سوء فنفذ صبر كل محب لسلامة السودان ، وشكا كل فرد من تدهور الحالة وما آلت اليه البلاد من الفوضى والفساد حتى كادت البلاد أن تتردى فى هاوية سحيقـــة لا يعلم مداها الاَّ الله .

"ونتيجة لذلك ، وهو المسلك الطبيعى أن يقوم جيش البلاد ورجـال الأمن بايقاف هذه الفوضى ، ووضع حد نهائى لها ، واعادة صـــــن والاستقرار لجميع المواطنين والنزلاء • والحمد لله قد قام جيشكـــم المخلص فى هذا اليوم السابع عشر من نوفمبر ١٩٥٨ بتنفيذ هذه الخطة السليمة المباركة والتى باذن الله ستكون نقطة تحول من الفوضى الـــى الاستقرار ، ومن الفساد الى النزاهة والأمانة • وانى واثق بأن كل مخلص لهذا البلد سيتقبلها بصدر رحب •

أيها المواطنون

"اننا اذ نقوم بهذا التغيير لا نرجو وراء ذلك نفعاً ولا كسباً ، كما اننا لا نضمر لأحد عداء ، ولا نحمل حقداً ، بل نسعى ونعمل للاستقرار واسعاد الشعب ورفاهيته ، ولذا فأننى اطلب من جميع المواطنـــين أن يلزموا السكينة والهدوء ، كل يقوم بعمله باخلاص تام للدولة ،الموظف فى مكتبه ، والعامل فى مصنعه ، والمزارع فى حقله ، والتاجر فـــى متجره •

"وبما أن قوات الأمن قد تسلمت مقاليد الحكم ، ولكى تستطيـــع أن تقوم بمهمتها خير قيام فأننى آمر بالآتى وأن ينفذ فوراً :ـ

١ ـ حل جميع الأحزاب السياسية

٢ ـ منع التجمعات والمواكب والمظاهرات فى كل مديريات السودان

٣ ـ وقف الصحف حتى يصدر أمر ،ذلك من وزير الداخلية

ان سلطات الجيش تطلب من جميع المواطنين تنفيذ ذلك بروح طيب كما انها تنذر الذين تحدثهم أنفسهم بالاخلال بالأمن أنها لن تتوانـــى قط فى توقيع الجزاءات الصارمة الرادعة عليهم •

"وقبل أن اختتم كلمتى هذه أودأن اطمئن السادة السفراء وقناصل الدول

والجاليات الأجنبية على سلامة أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم ، كما وانه يطيب لى أن أوكد بأن السودان الحر المستقل سيبنى علاقاته مع جميع الدول عامة والعربية الشقيقة خاصة على أساس من الاحترام والود وتبادل المنفعة . أما شقيقتنا الجمهورية العربية المتحدة فسنعمل جاهدين لتحسين العلاقات ، وحل جميع المسائل المعلقة ، وازالة الجفوة المفتعله التى كانت تسود البلدين الشقيقين .

" وختاماً أسأل الله التوفيق وللشعب كله الاستقرار والأمن والرفاهية والسلام عليكم . "

ومما يجدر ذكره أن الاستاذ أحمد خير لم يشترك فى اعداد هذا الخطاب ، ولم يعلم عنه شيئاً حتى موعد اذاعته .

وأصدر الفريق عبود رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة ثلاثة أوامر دستورية الأول منها يضع السلطة الدستورية العليا فى المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، ويخول هذا المجلس فى نفس الأمر الدستورى لرئيسه جميع السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية وقيادة الجيش .

أما الأمر الدستورى الثانى فقد حدد أسماء رئيس واعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، والأمر الثالث عين فيه مجلساً للوزراء تحت رئاسته يتألف من ستة من كبار العسكريين وهم جميعاً اعضاء فى المجلس الأعلى ، وخمسة وزراء مدنيين أحدهم الاستاذ أحمد خير الذى تقلد أمر وزارة الخارجية .

وأصدر المجلس الأعلى بعد هذا اوامر أعلن فى أولها حالة الطوارىء فى جميع انحاء السودان وعين القادة العسكريين فى الاقاليم حكاماً عسكريين، يعمل مديرو المديريات من الاداريين تحتهم ، واعلن فى ثانيها عن تعطيل الدستور المؤقت وحل البرلمان وفى الثالث وقف الصحف والنشرات الاخبارية ودور الطباعة الى حين صدور أوامر اخرى من المجلس الأعلى للقوات المسلحة .

وظل هذا الحكم قائماً ست سنوات حتى كانت ثورة اكتوبر ١٩٦٤ التى اطاحت به • وقد تعرض الاستاذ للاعتقال بعد الثورة فترة محدودة ثـم اطلق سراحه •

ولم يكن نشاط الاستاذ أحمد خير قاصراً على وزارة الخارجية وحدها ، بل استطاع أن ينشىء علاقات قوية مع الوزراء الآخرين وأن تكون لـــه بهذا كلمة مسموعة فيها •

السودان يعترف بالصين

للمرء أن يتساءل عن الأسباب التي حملت الاستاذ أحمد خير للتعاون مع الحكم العسكري في نوفمبر من عام ١٩٥٨ ، وهو الرجل الذي كان مكانه بين قادة التحرير ، ورواد الديمقراطية الصدارة ·

لماذا قبل العمل في نظام عسكري وهو الذي عرف عنه طيلة حياته السياسية ايمانه بحرية الرأي ، وتمسكه برأيه المستقل ، والدفاع عنه ، وعن حقوق الآخرين في التعبير عن آرائهم ، مهما كان اختلافهم معه ؟ ما كان أسهل عليه ، وهو صاحب فكرة مؤتمر الخريجين العام وبناته ، وصاحب الأفكار النيرة الأخرى الكثيرة في خدمة المجتمع،والأخذ بيده في مدارج النهضة والتقدم ، أن يساير التيار ، ويحظى بوضع متميز ، ومنصب رفيع في الأحزاب التي التفت حول المؤتمر في النضال ضد المستعمر لانتزاع الحرية ، وبلوغ الاستقلال ·· ولكنه لم يفعل ذلك رفضاً منه للهيمنة الطائفية ·· التي كانت تخضع لها احزابنا السياسية الكبرى ·

انه لم يذكر الاسباب التي دفعته للتعاون مع الحكم العسكري ·· ربما لأنه لم يسئل عنها ·· ولكننا ، استقراء للاحداث ، نستطيع أن نستنبط سببين رئيسيين قد تفسران لنا دواعي ذلك التعاون ·· أولهما الضغط واليأس الذي اعتراه وهو يرى الأحزاب تتكالب على مقاعد الحكم من أجل الوجاهة والجاه والنفوذ ·· لا سبيلاً لخدمة الناس ، والنهوض بمستوى الحياة بينهم ، كما تقتضي المبادىء الديمقراطية السليمة ··

وثانيهما افتقار الحكومات الحزبية الى الجدية فى معالجة قضايا الجماهير الأساسية ، رغم التضحيات الجسيمة التى قدمتها لتبلغ بالقيادات الحزبية الى مراكز السلطة .. ولعل صاحبنا قد اعتقد أن النظام العسكرى ببعده عن المناورات والدسائس والمفاسد الحزبية، يتيح للمتعاونين معه فرصاً أعظم للعمل على حل قضايا الجماهير . ومثل هذا التفكير كان - ولم يزل - سائداً فى العالم الثالث الذى ظل خلال العقدين أو العقود الثلاثة الماضية ، تتجاذبه النظم الليبرالية ، والعسكرية ، والشمولية .

ويمكن القول أيضاً بأن الاستاذ أحمد خير لم يكن يقبل لقيام الأنظمة العسكرية أو بقائها ، ان هى لم تكن تملك أسباب النجاح لحل القضايا الاساسية للجماهير ، عن طريق التنمية والتقدم ، والدليل على هذا منه هو اهتمامه الذى لا تحده الحدود بمشاريع التنمية ، وتوظيفه لكل طاقاته فى وزارة الخارجية ، وهو وزير لها ، لدفع عجلة التنمية فى السودان خطوات الى الأمام .

ونستعرض نشاطه فى هذه الوزارة ونستقصيه .. فنقرر أولاً أنه تولى مسئوليته فيها وهو مسلح بأهم الأسباب التى تؤدى الى النجاح ، فقد كانت له من امكانياته الفكرية ، وقدراته العملية ، وسعة اطلاعه ، وذكائه ما بوأه مكاناً ملحوظاً فى الحركة الوطنية منذ مناداته بقيام مؤتمر الخريجين العام فى سنة ١٩٣٧ ، وما بذل من جهد صادق لوضع الفكرة موضع التنفيذ .

ومن ناحية أخرى ، فقد حمل معه الى هذه الوزارة معارفه وتجاربه المتعددة ، اذ كان - بحكم تدريبه - من كبار رجال القانون ، درس النظم الغربية ، والشريعة الاسلامية ، وامتاز فوق هذا بثقافة عربية وغربية واسعة ، مما كانت تعكسه اسهاماته فى محاضرات الجمعية الأدبية بواد مدنى ، ومن ثم نشاطاته السياسية فى الخرطوم ، عندما

نزع اليها ، ليس هذا وحده ، بل هو قد حمل معه الى وزارة الخارجية تجربة ربع قرن من النضال ضد الاستعمار .

يقول السيد عبد الله الحسن الخضر ، الوزير والسفير السابق الذى عمل مع الاستاذ أحمد فى وزارة الخارجية عن قرب :-

" كانت هذه المزايا كافية لتنتزع له التقدير والاحترام من الدبلوماسيين السودانيين ، وقد كانوا هم النخبة الممتازة تأهيلاً بين المثقفين السودانيين . ولكن أحمد خير لم يكن ليكتفى بهذا ، بل اختط أسلوباً جديداً ، جعل كل من يعمل فى الوزارة من الدبلوماسيين يبذل أقصى ما لديه من جهد ، ليبلغ المستوى الذى حدده الوزير .

" لقد وضحت أبعاد طاقاته وقدراته وخبراته بعد أن تولى أعباء وزارة الخارجية مباشرة .. ولم تكن تلك الوزارة لتستوعب وحدها كل تلك الطاقات الهائلة منه .. اذ اتجه الى مجالات أخرى يستخدم فيها الفائض من طاقته .. كان يساعد فى وزارة الاستعلامات التى كان صديقه ، منذ أيام مؤتمر الخريجين العام ، محمد عامر بشير (فوراوى) مديراً لها ، ويشترك فى تحرير صحف الحكومة ، ويتوجه بالرأى والنصح الى بعض زملائه واقرانه من الوزراء ، ويعمل مستشاراً دائماً لرئيس الحكومة ، دون أن ينتقص هذا الجهد شيئاً من ادائه فى وزارة الخارجية ، بل كان ذلك منه حافزاً للدبلوماسيين لتقديم أفضل ما يملكون من عطاء ..

" كان أكثر الناس عملاً .. يمضى سحابة النهار فى مكتبه .. ويعود اليه ليلاً بعد أن يفرغ من طوافه على زملائه الآخرين ، وتداوله معهم فى كثير من الشؤون العامة ، وينكب على الملفات يطلع على ما فيها ، لا يغادر مكانه حتى يفرغ منها كلها ، حتى اذا ما جاء الصباح عاد كل ملف منها الى مكتبه .. وكان لهذه القدوة الحسنة منه أثر طيب فى تحسين الأداء فى وزارة الخارجية فى سائر مناشطها ، مما كان مثار

اعجاب العاملين بها ، وكان دقيقاً فى فحص التقارير والمذكـــرات ، يعلق عليها فى الهوامش ، ويضع الخطوط تحت الفقرات الهامة منبها ، ويعيد صياغة الجمل الركيكة ، ويختار الكلمات والألفاظ بدقة متناهية ، فلا تحمل شيئاً غير المعنى المقصود ، ويصحح الأخطاء النحوية فـــى كثير من الأحوال ٠٠ وفى النهاية كانت ملاحظاته المقتضبه مليئـــة ثقيلة مشبعة بأعظم المعانى ، تثير الاعجاب والتأمل ٠

" وكانت معالجته للعمل فى وزارة الخارجية ، بالاضافة الى جـــودة الأداء ، تفصح عن سعة اطلاعه ، وغزارة معرفته ، وحبه للتجويـــد والاتقان ، ولم يكن يبخل على نفسه بمعرفة الآخرين وخبرتهم ، بـــل يسعى للحصول على آرائهم فى المسائل الهامة ٠٠ وكان له أسلوب فريد فى ذلك ، لعله اكتسبه من ممارسته لمهنة المحاماة دهراً طويلاً ، فهو بالاضافة الى قدرته على الاستماع ، كان يتخذ رأياً معارضاً لما تقدمـه له الوزارة ، ليهتم بذلك السبيل ـ من خلال الجدل ـ على كل الحجج ويعتصر كل الآراء ٠٠ وكان الدبلوماسيون قد ترجموا بعض الحركات التى كان يبديها اثناء الحديث الى لغة ذات معان محددة ، لا تحتاج الى كلمات ٠٠ فمن الخير لك أن تبحث عن رأى آخر غير ما ذكرت اذا هو رمقك بنظرة شذراء ، أو تدرك أنه يسخر منك اذا حك ذقنـه ، أو تغادر المكتب اذا شمر عن ساعده ٠٠ ومع هذا فقد كان يستجـــب للدعابة البريئة ، والنكتة الذكية ٠

"وكان مكتب أحمد خير مفتوحاً لكل العاملين فى الوزارة مـــن دبلوماسيين وغيرهم من الموظفين ، ورغم ما اشتهر به من أنه لا يطيق الاغبياء والبلهاء ، فقد كان زواره يجدون لديه أذناً صاغية ، وتعاطفاً ملحوظاً نحو الحق والعدل ٠٠

لقد كان يولى قضية التنمية أكبر اهتماماته ، أولاً باستخدامـــه لوزارة الخارجية كقناة أساسية لاستقطاب العون الخارجى ، ثم بالتعاون مع الوزارة المسئولة عن هذا النشاط ٠ وكان له أثر ضخم فى تنفيـــذ

المشاريع الرئيسية التى قامت في ذلك العهد ، كخزان الروصيرص ، ومشروع المناقل ، وبعض الصناعات الاستراتيجية ، ومن هذا المنطلق ايضاً نجد التفسير لانحيازه للغرب باعتباره الأكثر قدرة على العون فى حل قضايا التنمية ، ولكن هذا الانحياز لم يمنعه من التعامل مع الشرق ، والانتفاع منه ما وجد الى ذلك سبيلاً . وانى لاذكر لقائى به مع بعض العاملين معه فى وزارته ذات ليلة بمدينة نيويورك عام ١٩٦٢، حين زارها ليرأس وفد السودان لاجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة .. وكان مقرراً أن يلقى خطاب السودان أمام تلك الجمعية ، وسألته عن المسائل التى يعتزم تناولها فى خطابه .. فرد قائلاً :-

المألوف من الكلام المكرور .. التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا.. القضية الفلسطينية .. سياسة عدم الانحياز .. نزع السلاح .. وغير هذا مما تردده الاسطوانة المكسورة .. وان اردت الاستزادة فسل مؤلفى الخطاب ، فها هم اولاء معنا ..

وقلت له : ولماذا تشترك فى تكرار هذه المعزوفة التى لا تجيد الانشاد بها ؟ لماذا لا تتركها لغيرك من العازفين وهم كثر؟

قال : وماذا تريدنى أن افعل .. ؟

قلت : أن تحدث الأمم المتحدة عن خطة التنمية التى أعدتها حكومتك ، فترفع بهذا منك أسباب الضيق والملل من نفوس مستمعيك بتقديم شيء جديد لهم ، وتناشدهم أن يمدوا للسودان يد العون لتنفيذ هذه الخطة ." واستجاب فى الحال " وفى حماسة فائقة ..

وفى اليوم التالى مزق الخطاب التقليدى المألوف .. وأنكب مع زملائه على اعداد خطاب عن خطة السودان الانمائية انتزع التقدير والاعجاب ، وحظى باهتمام عظيم من أجهزة الاعلام الدولية .

وبمناسبة زيارته لنيويورك تلك ، نقرر أنه كان يقيم في كل مدينة أجنبية تقوده لها أسباب العمل ، مع السفير السوداني في بيته ، لا في الفنادق الفاخرة ، على نقيض ما يفعل الوزراء الآخرون .. وكانت اقامته مع السفراء هذه تتيح له أن يتعرف عليهم ، وعلى أعوانهم عن كثب .. وكان متصوفاً قنوعاً ، لا يغشى الأسواق ، ولا يشغل نفسه بغير عمله .. يرتدي من الملابس أبسطها ، ويبتعد عن الأضواء .

وكان من أهم المنجزات السياسية في عهده كوزير للخارجية ، اعتراف السودان بالصين الشعبية .. وكانت هذه القضية قبل قيام الحكم العسكري مثار خلاف بين الأحزاب السودانية وجدل شديد .. الاتحاديون ينادون بضرورة الاعتراف بالصين كقوة مناهضة للاستعمار ، وحزب الأمة يفضل التريث حتى يتم قبولها في الامم المتحدة ، واثيرت القضية داخل الوزارة عند طرح السياسة الخارجية للنظام الجديد .. ودار حولها جدل كثير .. وكدأبه دائماً كان يحسن الاستماع دون أن يظهر من الحماسة شيئاً .. ولكنه دافع عن اقتراح الاعتراف بالصين داخل المجلس الأعلى للقوات المسلحة دفاعاً قوياً ، فانصاع ذلك المجلس لنصحه ، وقرر الاعتراف ، وكان هذا دون شك انجازاً هاماً بالنسبة للسودان ، تحقق له بسببه الكثير من الايجابيات ، وانفتحت آفاق واسعة لتعاون مثمر بين البلدين .

وكانت المرحلة التي تولى فيها شأن وزارة الخارجية مرحلة التحرر في افريقيا ، اذا لم يكن قد استقل من اقطارها غير نحو من اثنى عشر قطراً عندما استولى الجيش على الحكم في السودان .. وخلال فترة هذا الحكم قامت منظمة الوحدة الافريقية ، ، وتحررت سائر الأقطار الافريقية باستثناء المستعمرات البرتغالية وجنوب افريقيا ، وكان السودان قد قدم دعماً أكيداً لحركات التحرر في القارة ، وكان المنفذ الوحيد للمناضلين فيها الى الخارج .. وكان هؤلاء المناضلون من امثال

جشوا انكوموا ، قائد الكفاح فى روديسيا ، وسام نجوما من ناميبيا ، وغيرهم يحصلون على أوراق ثبوتية ودعم مالى من السودان قبل سفرهم الى خارج القارة ٠٠ وكانت افريقيا فى هذه الفترة تزخر بالعمالقة من الرجال الذين وهبوا أنفسهم للكفاح من أجلها ، جمال عبد الناصر ، وكوامى نكروما ، وبن بلا ، وماديبوكيتا ، ومحمد الخامس وسيكو تورى ٠٠ وكان أحمد خير واحداً منهم ، لم يبخل على هذه الغاية الشريفة بجهد ولا بمال ٠ يذكر له التاريخ موقفه من قضية استقلال الكنغو فى عام ١٩٦٠ عندما أراد الاستعمار أن يفصل عنها اقليم كاتنقا الغنى بالمعادن ، ويخضعه لسيطرته ٠ وكان أحمد خير فى ذلك الوقت يمثل بلاده فى مؤتمر للدول الافريقية المستقلة بأديس أبابا ٠٠ وجاءهم نبأ الاضطرابات التى اجتاحت الكنغو بسبب هذه الاطماع الاستعمارية ٠٠ فما كان منه الاّ أن أوضح لزملائه من المؤتمرين ما تنطوى عليه تلك الاحداث من تهديد للأمن العالمى ، مما يستدعى من الأمم المتحدة التدخل ٠٠ واقترح على المؤتمر أن يبعث ببرقية للسكرتير العام للمنظمة يحث فيه على تدخلها ٠ فاستجابت الأمم المتحدة للرجاء ، وتدخلت فى الأمر ، وتمكنت بذلك من الحفاظ على وحدة الكنغو

وفى خلال عهده بوزارة الخارجية قام بزيارات لكثير من الدول فى الشرق والغرب ، وكان عضواً بارزاً فى الوفود الرسمية التى يرأسها الفريق ابراهيم عبود ، زار الولايات المتحدة زيارة رسمية فى عهد الرئيس الامريكى جون كنيدى ، واشترك بفعالية فى المحادثات التى اجراها الفريق عبود مع حكومتها ٠٠ مما أسفر عن خير كثير ، لاسيما فى مجالات التنمية ، وزار الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية والمملكة المتحدة وغيرها ، وكانت كلها زيارات ناجحة ذات نتائج طيبة

وفى اكتوبر من عام ١٩٦٤ شهدت بلادنا انتفاضة شعبية اطاحت بالحكم العسكرى ، فخلد صاحبنا للراحة ، وابتعد عن النشاط السياسى

بعض الوقت ، وانصرف الى عمله في حقل المحاماة ، يتعاون فيه مع زميله وصديقه الاستاذ زيادة عثمان أرباب ، الذى كان وزيراً للمعارف والعدل فى حكومة الفريق عبود ٠

ولما وقع الانقلاب العسكرى الثانى فى الخامس والعشرين من مايو اتخذ منه موقف الرفض والمعارضة والعداء منذ يومه الأول ، وكان كعادته دائماً شجاع الرأى ، قوى اللسان ، لا تأخذه فيما يعتقده حقاً لومة لائم ، ولا يرهبه شيء ، لم يحفل بالاعتقال ولا بالسجن وقد أكثر ذلك النظام الاستبدادى الظالم من اعتقاله دون أن يقيم وزناً لكبر سنه ، ولا لسابقته فى خدمة السودان ، وكان هذا الاعتقال لايزيده الأ رفضاً لذلك الوضع ، وانكب خلال اعتقاله فى سجن كوبر بالخرطوم بحرى على كتاب الله الكريم بحفظ ١٣ جزءا منه عن ظهر قلب ، وعلى واجباته الدينية يؤديها على خير ما يكون الاداء ، فى خشوع وتجرد ٠

اشتهر أحمد خير بين اصدقائه ومواطنيه بقوة الفكر ، واصالة الرأى ، وسعة الاطلاع ، وسرعة البديهة ، والزهد فى متاع الحياة الدنيا ، يضحك للنكتة الذكية ، ويستمع الى القصة الطريفة،ويجادل الناس بالتى هى أحسن ، بيته مفتوح ، وكرمه فياض ، وحديثه شهى ، له اسرة يغمرها بعطفه وحبه ، وتحيطه بولائها واحترامها

استدراك

جاء في الصفحه الخامسة عشرة من هذا الكتاب أن اللقاء الاول بين الاستاذ أحمد خير والسيد / حسن أحمد عثمان الكد تم بعد نقله الروصيرص للعمل في في كليه غردون . وحقيقه الأمر هو أن السيدين /حسن وحسين آحمد عثمان كانا من دفعة الإستاذ / أحمد خير في كليه غردون وأن اواصر الصداقة بينهم نمت وترعرعت منذ ذلك الوقت بالاضافه الي صلة القربى .

يحدثني الاستاذ عثمان حسن أحمد في رساله بعث اليّ فيقول :-
كان الاستاذ أحمد خير وصديقه السيد محمد أحمد ابو رنات صلة ولفترة ليست بالقصيره مع السيدين حسن وحسين الكد وغيرهما من ابناء العباس مع المرحوم اللواء حامد صالح الملك فيما سمي بالصندوق العباسّي وآن لم يشتركوا معه في حزبه .

ويضيف الاستاذ عثمان آن هؤلاء الاصدقاء بالاضافه الي صلتهم بجماعة الفيبيان (THE FABIANS) فقد كانوا آعضاء في نادي الكتاب اليساري يقرأون منتجاته بما يثري عقولهم وثقافتهم .
ويورد نقطه أخرى فيشير الى قولي ان المغفور له الاستاذ عبد الله ميرغني كان من اعضاء اللجنة التي أعدت مذكرة المؤتمر عام ١٩٤٢ ويصحح هذا قائلاً أن الذي قام باعداد تلك المذكرة في حقيقة الأمر هو المغفور له الاستاذ أحمد يوسف هاشم.ويشير بعد هذا الي الدور البارز الذي لعبه الاستاذ أحمد خير في تأليف وفد السودان لمحادثات القاهرة عام ١٩٤٥ من سائر الاحزاب وعن مجيئه من مدني مع وفد يشتمل على السادة المغفور لهم الشيخ محمد أحمد المرضي والشيخ عبد الله ابراهيم ابو سن والاستاذ محمد أحمد محجوب لخدمة هذه الغاية ، والى مابذلوا من جهد في تكوين لجنة الاحزاب المؤتلفة بقيادة المغفور له السيد عبد الماجد أحمد .

هذا بعض ما لفت نظري إليه الاستاذ عثمان حسن أحمد في رسالته ، وإني اذ انشره في مؤخرة هذا الكتاب اعتذر عن الاخطاء وأقرر أن هذا الكتاب آعد على عجل ، ولعلنا نتمكن من ملافاة مافيه من نقص مستقبلا . وعند الله التوفيق ...

بشير محمد سعيد

محتويات الكتاب